رواية مُهْرَة

«دُمْيَةُ المَاريُونِت»

عَنِ السّيْطرَة البشريّة.. ودَنَفِ الدُّمَى الخَاضِعَة!

حِمْدَان جَمَال الشّميلي

□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□.indd 1 24/09/2022 03:25:21 □

الكتاب: مهرة دمية الماريونت
المؤلف: حِمْدَان جَمَال الشَّميلي
التصنيف: رواية
الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى: مارس ٢٠٢٣
التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN:978-9948-812-87-6
إذن طباعة: MC:-10-01-4294789

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

الطباعة: مطابع Ömür Matbaa -تركيا +902124227600

darmolhimon
www.darmolhimon.com
0097165551184
SILICON OASIS, 20TH FLOOR
(SIT TOWER) - OFFICE 2004 |Dubai,UAE

□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□.indd 2 24/09/2022 03:25:26 □

□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□.indd 4 24/09/2022 03:25:26 □

الإهْدَاءُ

إلى كلّ قلب فاض قاطنوه ورحلوا دون (شكرًا) على الأقل..
إلى كلِّ اعتذار قُبِل طيبًا، وعادت الكَرّة، وعاد القبول.. إلى كلّ عذر اختلقه العقل رغم الوضوح.. إلى الذين ما زالوا يستبشرون خيرًا بالآخرين، رغم غزارة جرح الروح.. إلى ملائكة الطين.. أنتم قِلّةٌ نرجو الله في كلِّ سجدة أن يغفر لنا زَلَّاتِنا معكم.
إهداءٌ مزخرفٌ عميقٌ.. لمهرة.

شكر خاص....

إلى العزيزة جدًّا، الشقيقةِ المُلهِمَةِ " مريم إبراهيم".....
يُشْكَر إصرارُكِ الشَّديد، ومجهودُك في تصميم غلاف الكتاب،
أدامَكِ الدَّهْرُ سَنَدًا شقيقًا لي، وسَلِمَتْ أناملُ إبداعِكِ.

الجمعة 7-1-2022

الساعةُ العاشرة صباحًا..

دَارُ المُسِنّين..

تجلسُ على كرسيٍّ هزَّاز، تمسحُ بيدها اليمنى التي ذَبُلَ شبابها على قطةٍ رمادِيّةٍ نائمةٍ فوق الطاولة، ترمقُ النافذة وأشعةُ الشمس تسرق ظلام كلّ الأرجاء، شعرها الأسود الذي غزاه البياض الرمادي، تبتسم رغم الدموع التي تحبسهما تلك العينان، ما زالت تحكي رغم انعدام ثقة المستمع في حياتها، وما زالت تغفرُ رغم أنها ملقاة غير مُرادة، والمُبْكي أنها ما زالت على قيد الحياة دون قلب ونبض!

أستمعُ لها بكلّ ما أوتيتُ من وفاء وحنان، تبتسم وهي تقول إنها النهاية، نهاية أقسى ما قد يحدثُ يومًا، كم هو غريب أن تنتهي وأنت لم تبدأ من الأساس! كم هو غريب شعور أنك لم تخضْ أية بداية في حياتك! عدا تلك البدايات البائسة، والتي كنت مرغمًا على مواكبتها، أتذكر ذلك الطفل الذي يفتقدُ شعور الخوف.. طفل لا يعرفُ معنى الخوف، والجميع من حوله يخوضون مسؤولية زرع الخوف في نفسه! في النهاية هو شعور لم يلْقَه عقله، إلاّ أن الجميع حمَّل نفسه مسؤولية زرع ذلك الشعور في قلبه، وهذا هو حال الفكر اليوم، لا يريدون حمايتك من خطر ما، بل على العكس تمامًا.. يريدونك أن تقع مثلما

وقعوا سابقًا؛ كي يردّدوا عليك جملة: نريد تقويتك كي تواجه الصعاب! أيّةُ صعاب؟

تلك الصعاب التي حاولوا جاهدين زرعها فيك لأنك لم تكن لتعيشها.

أبتسمُ بحزن؛ لأنها انتهت للمرة الأخيرة، ولن أراها مرة أخرى! وستمضي وحدها كما كانت وحيدة طَوال حياتها المنعدمة، أقوم لها وأقبّلُ رأسها بكل حرارة، أرمقها لأشبع عينيَّ منها، أعلّقُ الكاميرا بكتفي اليمنى، وأحمل أوراقًا تضجُّ حبرًا أسودَ بشعًا، مثل بشاعة ما سمعتُ منها طيلة تلك الدقائق الطويلة السابقة.

وداعًا مهرة..

وداعًا لتلك الطفلة التي وقف بها الزمن بعمر صغير جِدًّا..

وأهلاً بحكاية جديدة تُكتب.... أهلاً لصورة بشعة جديدة لن تنسى.

اسم الحالة: مُهْرَة.. دون أحد.

المكان: دار البُعْد من بشاعة العالم.

العمر: حديثة الحياة.

التوقيع: بصمة إبهام مجعَّدة.

ولادةُ دُمْيةٍ جديدةٍ..

خطأٌ غير وارد الحدوث في صناعتها..

استُبدِل إسفنجُ داخلها بالعروق والدماء..
والصوف بشعرٍ كالأبنوس الجذاب..
وخامها بجلدٍ طينيٍّ ناعم الملمس..
وصمتُها غدا بكاءً ونواحًا.
١٩٥٤م

السماءُ مِلكُ الرحمن.. والغيمة مِلكُ السماء.. والمطرُ نواحُ تلك الغيمة.. وحبَّات البَرَدِ نِتَاج نكران واقع القطرة.. والقطرة؟ كانت عذبةً صافية باردة.. نزلت من غيمة حزينة جِدًّا.. لم تستطع الغيمة تمالك كتمانها، ففلتت تلك القطرة.. كانت حديثة الولادة.. لا تعلمُ هل ستصفعُ ورقة شجرة عالية فتتناثر، أم ستسقطُ بين فراق اثنين لتنهيهما؟ أم على خَدّ وجهٍ دامعٍ لتزيد من هَمّ العين هَمَّين؟ أم ستتبخر فور وصولها لسطح ساخن وقت الظهيرة؟ ربما تكون سبب حياة نبتة أوشكت على الموت.. أو كُتِب لها أن تلعقها بقرة عطشى.. أو تكون شفاءَ عينِ ثوْر هائج.. وقد تكون بحيْرة تخنقُ دأب نملة.. كل ما في الأمر أنها لا تعلمُ ماذا ستكون.. مثل كلّ شيءٍ حيّ.. فالمجهول مخيف جِدًّا.. كطفل رضيع وُلِد وكان سعادة والديه، وحينما كَبُرَ تحسبا الوالدين واكتشفا أنه نقمة حياتهما!

نعودُ لتلك القطرة، التي حلَّقتْ وسْط الظلام الدامس، لتسقُط فوق جدار غرفة في منزلٍ طينيّ..

الساعة الثانية فجرًا..

تتسلّل آلام المخاض لجسد مريم التي لم تهنأ براحة طوال ذلك اليوم..

- قمْ يا محمد، لم أعد قادرة، سألدُ الآن!

يقوم بعجلة غير مدركٍ للأمر:

- ما بكِ يا مريم؟!

(مريم) تزفرُ ألمها وتعصرها: استعجل الداية يا محمد.. لم أعدْ قادرة.

يقفز محمد من سريره، ويرتدي ثوبه بعجلة وهو يرحب وينادي بمولوده: سيصل شهاب، وأخيرًا سيُطلَقُ عليَّ لقب (أبو شهاب) من اليوم فصاعدًا، سيصلُ من سيحمل كِبَرِي، وعَجْزِي، واسمي، ومالي.

يخرج شهاب جاريًا في أزِقّة " الفريج"، يكرّر اسم (أبو شهاب) بكلّ الأساليب والنبرات، ينتابه شعور الأب، تحمله الذاكرة للبعيد، أول نظرة، صوت بكائه، أين سينام، أول كلمة، أول ضحكة، إلى أن يصبح "النَّوخذة شهاب بن محمد"، اسمًا أشهر من نار على علم..

يطرق بابها..

(محمد): يا أمِ قتيبة، سيصل شهاب، استعجلي بالله عليكِ، لا أطيق شوقًا لرؤيته، يا أم قتيبة إن جاء سليمًا سأُغرقكِ مالاً،

حصتكِ ستكون ذهبًا بقدْروزنكِ، استعجلي بالله عليكِ.

تخرجُ مباركةً قدوم شهاب: بوركت، بوركت، بشّرك الله بكلّ ما سألته.

(محمد): آمين يا أم قتيبة، هيّا بنا لمنزلي.

تدخل الداية راكضةً لغرفة مريم، تصفعُ الباب بوجه محمد ليقف بالخارج محاولاً السيطرة على حماسه.

(محمد): ولدٌ يا رب، يا رب حقق سؤالي.

(مريم): يا رب، أسألك العافية لي ولجنيني..

دوَّتْ تلك الصرخة القوية، ليُسمعَ صوتُ مولودٍ جديدٍ..

يطرق الباب بكلّ شوق ليحمل ابنه.. ليحمل شهابًا.. تخرجُ الداية لتباركه..

- إنها بنت يا محمد، رزقك الله ببنت.

يُصعقُ جسده بكامله، تدمعُ عيناه قهرًا، يقفل على يده، ويضرب الجدار بكل ألم، يصرخُ بكلّ ما فيه:

- بنت.. بنت يا مريم بنت! هل كان ذلك الوعد؟ هل هذا ما استطعتِ إنجابه؟ بنت لتجلب لنا العار، لتنزل رأسي في القاع.. خسارة انتظاري طيلة تلك السنوات، لو أعلم لتزوجتُ عليكِ مئةً ينجبن لي الولد!

بكتْ مريم تلك الليلة بغصّة.. غصّة لن تبلع أبدًا.. غصة عليها تقبّلها مهما طالت بها الحياة.. فلتت دمعة ساقطة على خَدّ

الطفلة النائمة، انتبهت لها مريم، وسارعت بمسحها، ابتسمت لذلك الجمال الصغير، خاطبتها باكية:

- أعتذرُ منكِ، لم أعلم أنه بحضوركِ سيثور غضب أبيكِ، أنتِ أجمل من أن يحظى بكِ بنتًا، وأهدى من ثورانه، وأذكى من سذاجته، استودعتُكِ الحافظ من رأسكِ حتى قدميكِ.. ربِّ جَمّلْها بالطيّب وحسن الخُلُقِ، واكتب لها حياة لا تشبهُ مُرَّ حياتي.

- أسميتُكِ مهرة، دون أيِّ اسمٍ يلي اسمَكِ؛ لأنكِ أعظم من أن تحظَيْ به والدًا.

كانت الحياة خضراءَ في عينيها..

ولكنهم أحرقوا عالمها الأخضر، واستبدلوه بالرَّماد القاتم..

ربّما لأنهم لا يحبّون اللون الأخضر!

١٩٦٣م

بعد مرور تسعة أعوام..

أجري بطلاقة الحرية بين «زقاق الفريج»، كاسرةً كلّ القواعد المفروضة علينا نحن النساء، تراودني بعض الأسئلة، ماذا لو كنتُ ولدًا خُلق حرًّا منذ صِغَرِه وحتى مماته؟ لماذا تفرض كلّ العوائق على النساء؟ وكأننا خلقنا لنُعذّب.. أهزّ رأسي مسقطةً كلّ عوائق متعتي اللحظية، وأكمل جريي بأقصى سرعة.. الهواء يصفعُ وجهي بحنان، أصدّ يمينًا متحدّيةً أختي

غير الشقيقة «آية» جريًا، تغمرنا سعادة أعمق، نتسابق جريًا عائدتين للمنزل، وكأننا لبؤتان شرستان بكامل أنوثتنا، أرى عالمًا لا ترونه أنتم، أنتم؟ من لا تعرفون شعور الخيال، ولم تعيشوه لحظةً باعتبارٍ منكم أنه مضيعة للوقت لا أكثر، كمْ من الممتع أن نعيش ما نودّه خيالاً على أن نواكب ما لا نريده واقعًا! خيال؟ يا لها من كلمة عميقة! لا يعرفها إلاّ من آمن بوجودها لا أكثر.. تتصاعدُ سرعتي وطريق الرمال من ماس، وبيوت الطين المتهالكة أضحت قصورًا عملاقة لا توصف من شدة فخامتها، والبشر العاملون الهالكون أقوى وأوسم ممَّا هم عليه في الواقع، الطيور من حولنا تتجارى لكسب لقب فوز السباق، والحرارة الشديدة غدتْ غيمًا ومطرًا علينا، أفتح كلتا يَدَيَّ، وألوّح بهما فأطير للبعيد، عالياً هناك حيث الغيم لا غير، أنا؛ ذلك الشعور لا أكثر، أميرة من عالم خياليّ، وعار في العالم الواقعيّ!

تقدمتُ بابتسامة: صباحكِ خيرٌيا أمَّاه.

تقتربُ مني وهي تداعب أنفي: صباحي أنتِ يا شقيّة.

تدخل آية والعطش يتملّكها..

(آية) غير متمالكة أنفاسها: كيف حالكِ يا خالة؟

تضعُ أمي الخبز على جنب: بخير يا آية، ألم أنْهَكِ عن الجري بهذه السرعة، قلبُكِ لا يحتمل الضغط يا حلوة، اجلسي وسأجلبُ

لكِ كوبًا من الماء.

تجلس آية وهي تمسح قطرات العرق من جبينها، وتحركُ يدها ساعيةً للتبريد على وجهها شديد الاحمرار، تتقدّم أمي وتسلمها كوب الماء.

- اشربي على مهلكِ وارتاحي يا حبيبتي.

(آية) بتردّد: شكرًا يا خالة لا أريد.

تبتسم أمي وتقترب منها: هل منعتكِ سمية من تناول أيّ شيء من يدي؟!

تخفضُ آية رأسها بحزن..

تجلس أمي القرفصاء، وتمسح على يد آية: أنتِ تعلمين أنني أحبّكِ مثل مهرتي، لا عليكِ من كلّ الأقاويل الجانبية والشائكة، أنا وأمّكِ زوجتان للرجل نفسه.. وهذا تفسير أفعال أمّكِ العدوانية ناحيتي.. لا عليكِ ممّا تسمعين.. ركّزي دائمًا على ما تفعلين.

تمدّ لها كوب الماء مجدّدًا: تناوليه، لن أخبر أمّكِ عن شيء.

(آية) متناولة الكوب: أحبّكِ كثيرًا يا خالة.

تبتسمُ مريم.. تراودها ذكريات من الماضي، تتذكر محمّدًا زوجها.. محمّدًا الذي كاد أن ينهي حياته حينما رفض والداه فكرة زواجه منها، وهو نفسه الذي كاد أن يسجّل الكون باسمها بعد زواجه منها، وهو كذلك الذي تزوج من سمية، وأنجب

منها ووضع مريم في سلة المهملات، لماذا لا تُحنّطُ المشاعر لتبقى متوسّدةً على عرش أبدية التغيير؟ ولماذا يحدثُ ذلك التغيير دائمًا؟ لماذا نجدُ دائمًا ثغرة صغيرة فيما نحب؟ ويبقى المحبب لنا في هطول دائم لحين نفاده، لماذا لا تُرقّع تلك الثغرة الحقيرة؟ كونها سببًا وجيهًا في هَدْرِ كلّ جميل، والسؤال الأهمّ: هل إذا رُقّعت تلك الثغرة ستُحنط تلك اللحظات للأبد؟ أم أن أحد أطرافها سيسبب لها ثغرة أكبر من جديد؟

الوقتُ ظهرًا، والنار تسرقُ رمادية القدور، وماء الأرز يتبخرُ شيئًا فشيئًا، تقفُ آية مغمضة عينيها، تعدُ بكل تركيز للعشرة، أختبئُ خلف الباب بابتسامتي الصامتة التي تكادُ أن تكشف عن مخبئي، تنتهي آية وتجري باحثة، يسيطرُ عليها ملل البحث الخبيث..

- أين هو مخبئكِ يا مهرة؟ تعبتُ من البحث عنكِ.

أشاهدها من أحد ثقوب الباب المتهالك..

تتقدم آية قرب أمي..

(آية): هل تعلمين أين هي يا خالة؟

تضحكُ أمي: تذكّري دائمًا أن تخلعي زيَّ الباحث حينما تودّين إيجاد المبحوث.. لو كنتِ مكانها أين ستختبئين؟

(آية) بحماس: تحت السرير، أو خلف الباب.

تجري بحماس، تفتش تحت السرير، فلا تعثر سوى على الغبار،

تسحب الباب المشرع، فتضحكُ قائلة: عثرتُ عليكِ الآن.
نضحكُ مقتربتيْنِ من أمي المنهمكة في أعمال المنزل..
قلتُ ممازحة: أخبرتها عن مكاني إذًا.
(مريم) ضاحكة: حللتُ لغز حيرتها لا أكثر.
تدوّي صرخة من المنزل المحاذي لمنزلنا، وهي البقعة الوحيدة المحرّم علينا ولوجها، إنه منزل سمية زوجة أبي.
(سمية) بجنون وصراخ: يا لحظِّيَ العاثر يا آية! ليتني متّ ولم أنجبْ عارًا مثلَكِ! عودي للمنزل حالاً، وإلاّ والله سأدفنكِ أنت وتلك الساحرة وابنتها في حفرة واحدة، عودي الآن.
تخفضُ آية رأسها، والحزن يستوطن كلها، كانت أمنيتها الوحيدة منذ ولادتها أن تكون أمي أمّها لا غير، ومشتْ ذاهبةً وسط صدمتنا.

عصر اليوم نفسه، في قلب السوق المزدحم، والدكاكين التي لوّنتها بضاعتها.. شتّى أنواع الخضرة والفاكهة، وعلب البهارات والتوابل المستوردة، ومختلف الأعشاب والأدوية، وقطع القماش الزاهية المعلّقة، أمسِكُ بيد أمي، وعينايَ تتفقدان ما حولي، تتقدّم وتلقي التحية على «الحاج علي» صاحب دكان الأقمشة الذي تتعامل معه منذ كنتُ صغيرة جِدًّا، يتقدّمُ قربي، ويحملني مقبّلاً خدّي، ويجلسني فوق الطاولة، أصيحُ بأمي وأنا أدير وجهي لمحل التمور المقابل لدكان الأقمشة،

تحاول إسكاتي دون فائدة، خرج «الحاج علي» من محله، وعاد جالبًا لي تمرتين لإسكاتي، وباشر أمي فورًا في متطلباتها.

في طريق العودة تذكرتُ أنني يجب أن أحضر دفترًا جديدًا حسب طلب المدرسة من البقّال، سحبتُ يد أمي واقفة:

- يجبُ أن آخذ دفترًا من البقّال للمدرسة يا أمي.

- حسنًا يا حبيبتي، سنجلبه حالاً في طريقنا.

مشينا بضع خطوات، وإذ بآية تتقدّم لاحتضان أمي.. احتضنتها أمي بسعادة وتركتها قائلة: ماذا تفعلين هنا يا شقية؟

ردّتْ ضاحكة: جئتُ لآخذ دفترًا للمدرسة يا خالة.

قالت أمي: نعم، لقد أخبرتني مهرة لتَوّها، وجئنا للغرض نفسه.

تقدمنا للدكان قليلاً.. أكملت أمي: هل جاء أخواكِ معكِ؟

آية بحماس: لا يا خالة، جئتُ مع أبي.

رفعت أمي رأسها والتقت عيناها بعينَيْ أبي.. وقفا على حالهما لبرهة من الزمن برفقة الصمت، تقدّم أبي خلف آية، وأمسكها من كتفيها وعيناه لم تفارقا أمي: كيف حالكِ يا مريم؟

تجاهلت أمي سؤاله: مهرة، سَلّمي على أبيكِ.

تقدمتُ بتوتر الصَّد، مددتُ يدي، فتقدّم وقبّل خدّي، كانت المرةُ الأولى التي يقبّلني أبي بها، رجعتُ لبقعتي قرب أمي.. اعتذرت وسحبت يدي للبقّال.

كانا أغرب حب أراه في حياتي، وعلّماني معنى أن تحبَّ بقلبِكَ،

وتفارق الحب بعقلك الباطن.

ليلةٌ سوداء هادئة، وسط غرفة باردة يتوسطها سريرٌمتوسطُ الحجم.. تستلقي عليه أمي وهي تحتضنني، وتلعب بخصلة من شعري.

- لماذا تغيبُ الشمس يا أماه؟

ردّتْ بصدمة من السؤال: كي ننام يا شقية.

- وإذا لم ننمْ.. لا تشرق الشمس؟

ابتسمت وهي تفكر: لا يد لنا في غروب الشمس وشروقها، نمنا أم لا، ستظل تشرق وتغرب بأمر من الله.

- ولماذا نطعم الخراف طالما أنها ستذبح؟

وضعت يدها على بطني المنفوخ: كي يكون لحمها سمينًا، فنشبع.

- هل تشتكينا تلك الخراف عند الله على ما نفعله بها؟

- ذبحها أُحِلَّ لنا؛ كي نشبع.

اعتدلتُ بفضول: إذًا، لماذا نعيش ونحن نعلمُ أننا سنموت؟

تعتدلُ أمي، وتستعدُّ للجواب ماسحةً على خدي: الموت أول مرحلة في حياتنا.. ما زالت حياة أخرى تنتظرنا عند الله.

- هل سنقابل الله يا أمي؟

أغمضت أمي عينيها لوهلة، وقالت بهدوء: وسنعيش في جنَّتِهِ يا حلوة.

قلتُ بغُصّة مكتومة: حينما ألقاه سأشكو إليه قساوة أبي.

تصعقُ أمي صدمةً: لماذا يا مهرة؟ ألم نتناقش في موضوع أبيكِ سابقًا؟ لا أحد يختار عائلته، وجب علينا تقبلهم مهما كانوا.

- ولكنه لا يقسو إلاّ عليّ، لماذا يدلِّلُ شهابًا، وإسحاقَ ابْنَيِ الخالة سمية أكثر مني؟

ردَّتْ بشيءٍ من الحزن: لأنه لا يدرك قيمة وجود الأنثى في حياته!

- حتى آية أختي يحبُّها، ويكرهني أنا فقط، وكلتانا بنتان.

ابتسمت بهدوء: لا نقدر على إجبار الآخرين لتقبلنا.. لأننا إن سعينا في إقناعهم سنخسرُ قيمتنا يا بُنَيَّتي.. عليكِ ممّن يحبُّكِ، لا ممّن يكرهُكِ.

- ولكنكِ لم تجيبي عن سؤالي.. أنا وآية بنتان، لماذا يحبّها أكثر مني؟

تخفض رأسها: هناك أشياء لن تفقهيها لصِغَرِ سِنّكِ، حينما علمت خالتكِ سمية أنها حامل تُوُفِّيَتْ جدّتُكِ آية، كان أبوكِ متعلّقًا بها كثيرًا، فكُتِبَ عليه أن يتقبل إنجاب خالتكِ لبنت؛ لأنها النسخة الوحيدة لجدتكِ.

قلتُ بفضول: وأنا من أشبه إذًا؟

ردَّتْ وهي تفحصُ ملامحي: أنتِ نسخة من أبيكِ، وقلبكِ نسخة من قلبي.

قلتُ بثقة: إذًا حينما أكبر لن أخبر أبي عن طريق منزلي، وسأخبركِ أنتِ فقط، سأتركهُ وحيدًا مثلي تمامًا.

تعضّ أمي شفتيها بعينين محمرّتيْن.. تبتسمُ لنومي السريع..
تغمضُ مريم عينيها.. وتفتح بابًا في مخيّلتها، تتساءل: ماذا إنْ فعلاً كبرت مهرة وبقي كرهها لوالدها؟ هل ألومها على قولها الحقيقة، فهي تقول ما تشعر به، ليت والديك يا محمد أصرّا على رفض زواجنا! ليتك وفيْتَ بحبّك آنذاك ومتَّ وفيًّا بعيني، ولم نصلْ لهذا اليوم الذي تتبرَّأ فيه ابنتُكَ منك بهذا الشكل، ليتك يا محمد!
ديكٌ صيَّاحٌ يدوّي صوته بكلِّ السِّكَك.. صباح جديد.
منزل سميّة.

تفتح سميّة باب غرفة الولدين، فتجدهما نائمين.. ترفع صوتها بحِنِيَّة: يا أولاد هلك صوتي من نومكما هذا، حان وقت المدرسة، استيقظا.. يا شهاب.. يا إسحاق سوف يغضب أبوكما، هيّا حان وقت المدرسة.
تخرج من الغرفة.. تتمالك غضبها المكتوم، تتقدَّم منها آية وهي مرتدية زيها المدرسي، وعلى أتمِّ الاستعداد للذهاب.
- (آية): صباح الخير.
(سمية): أراكِ تركضين للمدرسة غير النافعة، مكان البنت بيتها ومطبخها، دعكِ من أمور الصبيان، لا أعلم لماذا يسايركِ أبوكِ بموضوع المدرسة هذه؟
(آية): دراستي أولوية يا أمي، وحينما أعود سأساعدكِ بالغداء.

(سمية): لا أريد منكِ أية خدمة، لن تصبحي أفضل من الساحرة زوجة أبيكِ وابنتها الثرثارة، ليتها كانت أمكِ ولم أنجبكِ أنا؛ لأنكِ خلفة نحيسة من بعدكِ لم أحبل حتى الآن!

مشت آية تاركة جُمَلَ والدتها تنهار للمجهول.. مشت ولأول مرة تردد بقلبها:

- آمين.

آمين لدعوة أن تكون ابنة مريم لا سمية.. اقتربت من مائدة الطعام البسيطة، وجلست قربها، صوتُ نحنحة نابع من غرفة والديها.. تعتدل في جلستها، فيخرج والدها محمد.. يقترب من مكانها، فتقوم لتقبِّل رأسه.

(آية): صباحك خيرٌيا أبي.

(محمد): وهو مبتسم: صباحكِ خيرٌيا أمي.

(آية) ضاحكة: أبي، أنا أصغر منك سِنًّا.

(محمد): ولكنكِ نسخة أمي، ولكِ كل الاحترام والطاعة.

يجلسان حول المائدة.. يحمل محمد قطعة من الخبز مغموسة بالعسل، ويضعها في فم آية وهي تضحك بسبب القطرات اللزجة التي حطَّتْ حول فمها.. يدخل يديه في جيبه ويسلم آية مصروفها المدرسي.. تقاطعه سمية - وضجرها الدائم- وتقترب قائلة: وأنا أريد النقود أيضًا.. سأذهب للسوق اليوم.

- (محمد): خير إن شاء الله.. أين الولدان؟ لقد تأخر الوقت.

- (سمية) بتوتر: إنهما على أتم الاستعداد سأذهب لتفقدهما.

تضع آية النقود في جيبها.. وتكمل طعامها.. يشاهد اختفاء سمية.. يُدخِل يده في جيبه مجدّدًا، ويسلمها نقودًا قائلاً:

- هذا نصيب أختكِ مهرة.. سلّميها إيّاها.

(آية): حاضر يا أبي.

(محمد): هل هي بخير؟

(آية): أخبرتني منذ مدة أنها مشتاقة لرؤيتك.

(محمد) بحماس خَفِيّ: هل قالت مريم إنها مشتاقةٌ لي؟

(آية): أقصد مهرة.. ابنتك.. أختي.

يتعكر صفوه اللحظي.. يقوم قائلاً: سأذهب أنا.. انتظري الولدين، واذهبي معهما للمدرسة.

ويذهب متوجّهًا للخارج.. كان محمد حائرًا بين حبِّ قلبه وعقله.. ولكنه اختار عقله؛ كونه سيربّي ولدين بدل الواحد، وظل عالقًا في أمنية الماضي.. دون عودة لها.

يُفتحُ باب المنزل، تخرجُ منه آية ومن خلفها شقيقاها والنوم ثالثهما، يتحرّكان ببطء مميت، فتصرخ بهما آية:

- انتظرا، سوف ترافقنا مهرة.

(شهاب): استعجليها، فلقد تأخر الوقت.

(آية): حسنًا انتظرا هنا.

تتقدم آية لمنزل زوجة أبيها، وتطرق الباب برقّة، يُفتحُ الباب،

وتستقبلها مريم بسعادة:

- تفضلي يا حلوة.

(آية): هل أختي جاهزة يا خالة؟

(مريم): نعم، تعالي لتفقّدها.

تدخل آية المنزل، وتذهب لغرفة مهرة.. تطرق الباب وتَهِمّ داخلة.

(آية): هل أنتِ جاهزة؟

أقول وأنا أشهدُ دخولها من مرآتي التي أقف أمامها وأنا على وشك أن أنتهي من تصفيف شعري والابتسامة مرتسمة على وجهي: نعم جاهزة.

تدخلُ أمي الغرفة وهي تخبئ خلف ظهرها هدية ما.. تتقدم وتقول:

- لكما هدية جميلة.. ربما تسعدكما وتذكركما بي دائمًا.

نقف مذهولتين..

تمدّ يديها بالهدية.. دُمية قماشية متوسطة الحجم تكسوها الخيوط السوداء الرقيقة، نذهل من جمالها.. نتقدم محتضنتين إيّاها، وكلتانا تعبث بالدُّمية الجميلة.

- شكرًا يا أمي، إنها جميلة جِدًّا.

تقول ببهجة: مثلكما تمامًا.

(آية): ماذا سنسمّيها؟

تجلس أمي على طرْف سريري: هذه دمية مختلفة، قدّمتْها لي

جارتنا بعد وصولها من السفر، هي دمية متحرّكة، لها في كلّ لحظة ألف قصة جديدة، ومسمّياتها مختلفة، تستطيعان التحكم بحركاتها من هذه الخيوط السوداء.

قلتُ: إذًا يكفيني أن أدعوها بالدمية دون اسم معيّن.. ستكون رفيقتي أينما كنت.

يطرق باب المنزل بقوة.

- إن لم تأتيا سنذهب، ونترككما وحدكما.. هيّا لنذهب.

(آية): إنه إسحاق يا خالة.. هيَّا بنا.. تأخر الوقت.

تخرج آية، أتقدّمُ تاركةً الدّمْية على السرير، وأذهبُ بحماس لحضن أمي مودِّعةً رائحتها الدائمة.

- ألقاكِ بعد عودتي يا حبيبتي.

أمي برقة: بإذن الله.. حفظكِ الرحمن يا حلوتي.. وتذكّري أنكِ أقوى من كلّ شيء.. اصنعي شخصكِ بنفسكِ.

أخرج والسعادة تغمرني، ألحقُ جريًا بخطوات إخواني، وكلي منشغل بالقصص التي سأرويها عن الدمية، أميرةٌ، أم مثقفة، أم خادمة جميلة، هناك عِدّة مسمَّيات ساحرة، فقد وجدتُّ مَنْ سيشاركُ وحدتي المُمِلّة، وهذه مَلَكةُ أن تصنع من الفكرة عالمًا آخرَيحتويك.

ظهر اليوم نفسه..

مريم في منزل جارتها رقية... تجلسان والضحكة وليدة حواراتهما

السعيدة، يُطْرقُ باب المنزل، وتدخل سمية.. تتقدّم وسط صدمة الموقف..

(سمية): لم أعلم يا رقية أنكِ ترافقين خبيثات الزمان!

(رقية) بإحراج: تفضلي يا سمية، فلا غريبَ هنا.

(سمية): لا أجلس في مكان تتواجد فيه هذه الساحرة.

تَهِمّ مريم ذاهبة..

(رقية): لستن أطفالاً.. لا داعي لهذه الضجة.

(مريم) بهدوء: من الواضح أن سمية ما زالت حاقدة، هذا طبع لن يتغيّر فيها.. كفاكِ كرهًا وشؤمًا، ألم يكفِكِ زوجي الذي أخذتِهِ؟ ما زلتِ حاقدة دون داعٍ.

(سمية): يبدو أنكِ لم تدركي بعدُ أنه هو مَنْ أرادني لا أنا، ولكنْ عَمَى الخبث لا يكشف لكِ الحقيقة، أنت ماضٍ يخجلُ من ذكره حتى، ألا تذكرين متى آخر مرة سأل عنكِ وعن ابنتكِ؟ انظري إلى حالكِ، بشعركِ الشائب هذا، وتجاعيد وجهكِ، ومظهر لبسكِ، ورائحة المطبخ التي تفوح منكِ، انظري لنفسكِ وستعلمين لماذا أخذني محمد عليكِ..

تفلتُ دمعة لعينة من عينَيْ مريم لتكسر صمودها، تسدلُ غطاء وجهها المرفوع وتخرج من المنزل.

(سمية) بنبرة عالية ودَلَع: إذا حضرت الملائكة، ذهبت الشياطين.

تصلُ مريم لمنزلها متهالكةً، ونبضاتِ قلب متسارعة، تبكي بغُصّة أليمة.. كيف جعل منها محمدٌ أضحوكةً أمام الجميع، لم يكفِهِ كسرها، بل وجلب لها من يذكرها به دائمًا وأبدًا.. تقتربُ من المرآة، ترمقُ شكلها وكأنها تشاهدها لأول مرة، سواد يكتسح أسفل عينيها.. تجاعيد كثيرة تخفي جمالها.. شعيرات بيضاء تناقض سواد كثافةِ شعرها.. ألمٌ يصرخُ في قلبها.. وخزات مؤلمة.. تسقطُ على الأرض، وتدركُ أنها شاهدت نفسها للمرة الأخيرة!

«بعض الكلمات قد تكون أخطر بكثير من سلاح موجَّهٍ، فطلقة من سلاح ربما تأتيكِ بمكان في غير مقتل، ولكنَّ كلمةً حقيرةً قد تخترق قلبك دون واقٍ لها.»

بين السكك الخالية..

أمشي مع الإخوة بصمت مريب، فتكسرُ آية صمت اللحظة..

- متى سنلعبُ بالدمية؟

ابتسمتُ وأنا أربت على كتفها: تعالَيْ معي للمنزل، سنأكل ومن ثمّ سنلعب بها، لا تعلمين الكمّ الهائل من الحكايات التي تسكن عقلي الآن.

يتقدم إسحاق قائلاً: لن تذهبي لمنزلهم!

(آية): وما شأنك أنت؟

(إسحاق): حسنًا سأخبر أمي أن نَحْسَ حياتها عَصَتْ كلمة أحد

رجال المنزل.

(آية): أبي يعلم بأمر ذهابي، وهو الوحيد الذي يفرض عليَّ ما أفعل.

(إسحاق): رافقي مهرة إذًا.. لن تنفعكِ ابنةُ الساحرة هذه في شيء.

يسحبُ شهاب أخاه إسحاق ليكسر كلماته الجارحة، ويجرُّه ذهابًا للمنزل.

(آية): متأسفة.. هو لا يقصد ما قال.

ابتسمتُ بحزن: لا عليكِ اعتدتُّه هكذا، واعتدتُّ كلامه الجارح.. لا عليكِ، هيّا بنا نتسابق للمنزل.

ندخل المنزل بحماس قاتل:

- أماه أين أنتِ؟

- يا خالة نحن جائعتان.

نتقدم نحو غرفتها.. أحاول فتح باب غرفتها بصعوبة، وكأن شيئًا ثقيلاً عالقًا خلفه، بعد محاولات عدّة شاهدتُّ أمي ساقطةً خلف الباب، صرختُ بألم شديد:

- أماه.. هل أنتِ بخير؟ ما بكِ قومي وحدثيني!

أنظر إليها والسكون يستوطن كلها.. لم أعتدْها صامتةٌ هكذا.. صراخي الشديد وبكائي الهستيريّ جعل أبي المارّبالسكّة يتقدّم مقتحمًا المنزل ليرى ما يحدث، يقف أبي بصدمة وعينين

دامعتين وهو يراها ملقاة، ورأسها يتوسط حضني، ربما أدركَ بأنه خسرها مجدّدًا، ولكنها خسارة لا عودة بعدها، رحلت أمي تاركةً ذكرياتها في المكان، وحسّها يجوب الأرجاء كلها.. ما أقسى أن يرحل الجميع، ويتركون ذكرياتهم دون سبب وجيه!

وساد الألم يومها قلوب الجميع..

إلاّ سمية، باتت يومها سعيدة؛ فلا شَيْءَ سينافسها بعد اليوم.

غرفة مظلمة.. انهيار قلب.. جسد وحيد.. سرير يحوي شخصًا واحدًا، لا اثنين.. بكاء صامت.. وحضن دمية، أستنشق عبقها كلّ حين لأتذكرها، لم يعدْ لي أحدٌ بعد الآن، كانت كوني وملاذي الوحيد، تنهمر دموعي بغزارة..

- تركتِني وحدي يا أمي، كيف لي أن أواجه العالم من دونكِ الآن؟ كيف لي أن أكون من بعدكِ؟ كيف؟

نمتُ ليلتها بشعور وحيد غريب.. شعور الفأس الخشبي اليتيم الذي يَنقضُّ على عائلته مُجبرًا.. شعور بين الوجود واللّا وجود، وفزّة أن تستيقظ كلّ حين وفي قلبك أمل أنّ كلّ ما حدث كان حلمًا، ولكنه لم يكن كذلك.

انقضت أيام العزاء الكئيبة ببطءٍ لعينٍ.. سواد يقتحم داخلي بخنقة زحام المشاعر القاتل، وأولوية البكاء الدائم دونًا عن كلّ الخيارات الحزينة التالية.. ما زلت أجلس في مكاني، فوق السرير وسط الغرفة نفسها وظلامها، وأحتضن الدمية، كم

هي محظوظة! تحتويها عشرات الخيوط التي توصل بينها وبين ماسكها، تستطيع المبيت في حضن ألفِ أمٍّ متى ما أرادت، وتتنكر في زي بطلة كلّ الحكايات السعيدة.

□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□.indd 29 24/09/2022 03:25:28 □

صوتٌ يقتحمُ المنزل..

انتابني بعض الفزع، هُرِعْتُ بمَهْلٍ للخارج، وإذْ بأبي يستلقي في حوش المنزل ناويًا النوم.. الحزن بادٍ على ملامحه، وربما لهذا السبب طردته سمية، فأتى ليبيت هنا، قام ليعدل وسادته، فالتقت أعيننا لبرهة.. كسر وصل تلك البرهة، ووضع رأسه نائمًا بصمت.. عدتُّ لغرفتي، لوحدتي التي ستدوم للأبد، ما شعورُ الجسدِ حينما تغادره الروح؟ ما حالُ الكلمة حينما تنتهي القصة؟ ما بال الذاكرة حينما نتناسى براءة الصغر؟ وما دور المظلةِ حينما يتوقف المطر؟ كلٌّ حزين في نهاية الأمر، وكلٌّ وحيد، في عالمٍ لا يسعُ إلاّ اثنين، فأين دورُ الواحد؟ الكتابُ بيدين، والكلمة لناظرين، والحسنةُ لمحتاجين، والدبلةُ لزوجين، والفراقُ لعاشقين، والحرب بين دولتين، والسهم يخترقُ وسط النصفين..

في عالم لا يُقبلُ فيه إلاّ اثنان.. ولدتُّ أنا.. واحدة، لا اثنتان.

صباح آخر كئيب..

يُفتح باب غرفتي، تتزاحم أشعة الشمس للداخل، أنهض بتعب شديد لرؤية الزائر..

(آية): آسفة، هل أيقظتُكِ؟

قلت وأنا أعتدل من نومي: لا بأس، تفضلي.

تقدّمت للجلوس على طرف السرير..

- كيف حالكِ اليوم؟

قلت بعد برهة صمت: بخير.

(آية): أرسلني أبي لأخبركِ بأمر مبيتك لوحدكِ هنا.

رفعتُ خصلة شعر ساقطة: نام هنا بالأمس.

(آية): نعم أعلم، تشاجر مع أمي وخرج ليلاً، أنتِ تعلمين أنه لا يمكنكِ المبيت لوحدكِ في هذا المنزل.. أخبرني أبي بأن أساعدكِ في لَمِّ حاجياتكِ؛ لتنتقلي للنوم معي في منزلنا.

صمت يجتاح صوتي..

(آية) متداركة الوضع: لا عليكِ يا مهرة، فترة بسيطة وتعتادين الوضع، ستتشاركين معي سريرًا واحدًا، ودولابًا وألعابًا، ستبقين قربي وهذا أهْوَنُ وضع.

أزحتُ اللحاف عن جسدي الدافئ وأنا أهِمُّ القيام: حسنًا ابدئي بالدولاب لحين أن أغتسل وأتقدّم لمساعدتكِ.

حقيبتان مليئتان.. أرفف فارغة.. سرير عَارٍ من الأغطية، وبيتٌ فقد أكثر عمود كان يستندُ عليه.. تسحب آية أمامي حقيبة وتَهِمّ خارجة، وألحقُ بها مُغلقة الباب مودِّعةً المنزل وذكرياته، ويُفتح باب منزل سمية.. يُفتح باب الغم الجديد! ترحب بي آية.. تقودني لغرفتها.. أمشي بمهل، وأتفقدُ كلّ الأرجاء:

منزل يحوي ثلاث غرف ومطبخ.. جلسة متواضعة خارجية ضيوفها دِلال القهوة والشاي.. حبال تتصل بزاويتين تغطيها الملابس المبلولة.. بقعة ماء أرضية تحيطها الطيور من كلِّ جانب.. بئر تتوسط حوش المنزل عميقة الباطن متقشرة الأطراف، تفتح آية الباب، أدخل لغرفتها، سرير يكفي شخصين.. دولاب عملاق يتمركز بأحد الجوانب، مكتبة صغير خشبية، كرسي هزاز، فرش بدرجات البني الغامق والفاتح، تتقدم قربي بابتسامة..

- من الآن هذه الغرفة من نصيب كلتينا..

رددتُّ عليها الابتسامة، وجلستُ أخرجُ حاجاتي، أدركتُ يومها أنني كبرتُ كثيرًا، لم أعُدْ تلك الطفلة ذات التسعة أعوام، كبرتُ قبل أواني بكثير، ولا مجال للعودة.

زاحمت خيوطي المنسدلة أصابع القدر..

أصبحتُ مِلكًا للسيطرة..

وبات فرضي اليوميّ؛ التذكر باستمرار أن أنسى ما كنتُ عليه!

مرت تلك الأيام، وما زال الجرح غائرًا كما كان، ظلام دامس، وحدة لا تطاق، حزن دائم، والشعور المهلك هو انعدام الرغبة بالمُضِيّ قدمًا للأمام، فالطريق ليس بسالكٍ أمامي، هناك عتبة شاهقة الارتفاع، صعبة الخُطى، ثقيلة هي الأيام من دونها، باهتة جِدًّا لا لون لها، خرساء ميتة لا نغم فيها، عطشى متصحرة لا تُروى، كسررحيلها لا يُجبر، مثل الحطام، دخان ونيران ورائحة خانقة، ومهما تظاهرتُ بالقوة ستفضحني نبرة خائنة، ودمعة فالتة، ونظرة يتيمة، فقدان أمي هو ذلك الشعور، وأنا حديثة الولادة على معايشته.

أكملتُ قرابة الثلاثة أشهر منذ أن انتقلتُ للعيش هنا- في منزل سمية- فأنا كابوس حلّ عليها كما تقول لي دائمًا، منذ أول ليلة قضيتها هنا أجبرتني فيها على إعداد العشاء والاهتمام بنظافة المكان والمطبخ ودَعْك الملابس، ونشرها، وغيرها من أعباء المنزل التي لا تنتهي، وتقول إنها ضريبة حصولي على مسكن آمن يحتويني، وكأنني لقيطة من إحدى أزِقَّة مدن العالم، والأمرُّ أنها تذلّني بغرفة في منزل أبي! أبي؟ لقد تناساني للأبد، ما زال يلتزم صمته التام أمامها، أو بالأصح من خلفها أيضًا، حيث إني لا أهمُّه أساسًا! جلستُ، أم بكيتُ، أم مت، فأنا بصمة عار بالنسبة له لا أكثر! لا يعيرني أدنى اهتمام وكأنني شيءٌ لا يخصُّه إطلاقًا، لا أذكر حوارًا واحدًا يجمعني به منذ دخولي لهذا المنزل،

ولا نظرة استمرت أكثر من ثانيتين على الأقل.

كانت آية الوحيدة حينها التي تشعر بي وبحالي، وتهتم لحزني وسعادتي، كانت تحاول قدر المستطاع مساعدتي في إنهاء فروض المنزل اليومية، إلاّ أن سمية كانت توبخها، وتعاقبها أشدَّ العقاب وهي تردِّد جملتها الشهيرة:

- دعي ابنة الساحرة تعمل لوحدها، كتبها لي الله لآخذ منها حقي طيلة تلك الأعوام بسبب أمها، دعيها تشقى، وتشعر بشقاي حينما كنتُ أعلم أن أبوكِ ما زال يحب تلك العقربة رغم كل ما حدث!

بقيتُ على حالي هذا، أعمل وأنام وأنهضُ وأعملُ دون راحة، وتنهال عليّ أقسى وأشد الدعوات، كانت تشتمُ والدتي كل دقيقة! تحاولُ إفراغ كلّ ما في جعبتها من حقد لا ينتهي من الأساس، ما ذنبي أنا؟ شعور لا يُفقه ولا يُدرك..

خلال تلك المدة، رزقني الله بحبٍّ جديد، لأول مرة أجرب شعور أن يكون لي أخٌ وسندٌ يحميني من كل خطر، إنه شهاب.. الذي كان حضنًا يكملُ نقصي، وسندًا أتَّكِئُ عليه في أوقات صعابي، لم يكن الولد المدلل الذي لا يُردُّ له طلبٌ أو أمرٌ، كان رغم صِغَرِ سِنّه قنوعًا ومحبًّا لكل ما حوله.. تقرب مني وكان غيرراضٍ عن أفعالِ والدته معي، كان يراني أخته لا أكثر، فدماء أبيه التي تجري بدمي لم تأتِ عبطًا، بعكس أخيه إسحاق الذي كان

نسخة مصغَّرة من سمية، كان شقيًّا كارهًا حاقدًا، يتعمَّدُ إيذائي بكلمة أو نظرة أو فعل، كان الأقربَ لوالدته، وهي أحنُّهم عليه، كان يكرهني إلى حَدّ الموت! ويريدُ قلعي من هذا المنزل بأية طريقة كانت.

أفتحُ عيني بفراغِ الحياة، صباحٌ داكن، لم أهنأ فيه بنوم جيّد عميق- رغم كثرة الأعباء الشاقة يومها- قمتُ بفراغ الشعور والرغبة، أمشي على أطراف أصابعي كي لا أوقظ آية من منامها، أفتحُ الباب بمهل شديد، نسمات باردة، شروق شمس مبكر، يصيح ديك الجيران غاضبًا، أغلقُ الباب من خلفي، أمشي للحمام، أقف مشاهدةً نفسي بالمرآة الصَّدِئَة المعلّقة فوق المغسلة، أنفخُ ثقل أنفاسي وهلاكي بقهر وهدوء، فقط أحاول.. أحاول مواكبة تلك الحياة فقط.. أفزع من صوت قرع مخيف..

(إسحاق): هيّا يا مهرة، لقد طال دخولكِ للحمام، إنني حصران، هيّا يا بومة النحس!

أغمضُ عينيّ.. أقفل يدي..

يكملُ قائلاً: أعلم أنكِ تسمعينني يا ابنة الساحرة، ليتكِ تلحقين بها سريعًا.. قالتها أمي لن تصبحي أفضل من أمكِ العجوز العابسة!

تزدادُ نبضات قلبي قرعًا، وتحلُّ الملامح الغاضبة الحادَّة وجهي، أفتح الباب بغضب شديد.. يقف رامقًا إيَّاي بنظرة استفزاز،

أدفعه مسقطةً إيَّاه أرضًا، يُصدم باكيًا مناديًا سميّة، يخرجُ الجميع من قوة بكائه، تقتربُ سمية بصدمة محتضنة إيّاه.

(سمية) بخوف واستغراب: ماذا بك؟ لماذا تبكي؟

(إسحاق) ببراءة مفتعلة: لقد صفعتني، ودفعتني أرضًا يا أمي، دون أن أفعل لها شيئًا!

تقف سمية والصدمة والغضب يرتسمان على ملامحها.. تتقدم قربي بسرعة شديدة وتمسكني من كتفي مسكة عنيفة مؤلمة:

- إن رأيتُكِ تلمسين أبنائي مرة أخرى سأقطعكِ إرْبًا إربًا، وأرميك للكلاب الضالة، هذه هي تربية مريم إذًا.. ماتت وبلتني بكِ، والله يا مهرة إنني سأجعلكِ تجنين بسبب فعلتكِ هذه، من اليوم فصاعدًا لن تذهبي للمدرسة، ستنسين ذلك المكان نهائِيًّا، مكانكِ المنزل لا غير، خادمة تحت قدمي، تسمعين يا ابنة الساحرة، أم لا؟

قالت جملتها وهي تدفع بي للخلف بقوة.. صدمة تجتاحني، أرمقُ الجميع من حولي: دموع آية، قفلةُ يد شهاب، نظرة أبي غير المبالية للموقف، ابتسامة إسحاق الحقيرة، أجري للغرفة والدموع تتهاطل من عينيّ بشدة، أحتضن وسادتي، كانت أول مرة أبكي فيها بهذه الشدة، تقتربُ مني آية باكية محرجة، أغطي بالوسادة وجهي رافضةً الحديث، تحاول معي بشتى الطرق دون فائدة.

قالت بلباقةٍ شديدة: متأسفة جِدًّا على ما حدث، ستعفو عنكِ أمي بعد أيام لا تقلقي، سأدعكِ ترتاحين قليلاً، سأذهب للمدرسة وحينما أعود سأحادثُكِ، مع السلامة.

ترحلُ بعدها فورًا، تغلقُ الباب، فتنتشر الظلمة في الغرفة، أُزيح الوسادة من على وجهي، بقع الدموع طُبعت على الوسادة، أريد أمي لا غير، أريدها للأبد، إلى حَدّ الخلود، لا أريد أن أعيش ما تبقَّى من عمري دونها، كيف لي أن أكبر دون أن أعود لصفوف المدرسة؟ كيف لي أن أبقى خادمة طوال عمري لسمية؟

همستُ بداخلي: أمي اشتقتُ لكِ كثيرًا، انظري ماذا فعلت بي سمية، وأبي لم يبدِ أية ردّة فعل على الموضوع، عودي لتأديبها، أنتِ قوية، ولكنكِ لم تعلميني القوة بعد، عودي أرجوكِ!

وغططتُّ في نوم عميق..

لم تمر ساعة واحدة على ما أعتقد، دلو ماء بارد يُصَبُّ فوقي!

أقوم بفزعٍ كاد يقتلُ قلبي، وإذْ بسمية أمامي.. قالت:

- أعتقد أنني وكلتُكِ بمهامّ يومية عديدة، قومي بسرعة ونظِّفي المنزل، حرمانكِ من المدرسة لا يعني قسطًا من الراحة في حياتكِ، أريدكِ أن تعملي ليلاً ونهارًا، كالحمير، بسرعة قومي وأنجزي مهامّك.

قفزتُ بصمتٍ وقطرات الماء تتهاطل من جسدي، أدركتُ حينها أنني مهما فعلت لن أفلت من سمية، من الواضح أن مصيري

مرتبط بها طوال الحياة، ربما كُتب لي مجاراة غضبها الدائم، وكرهها غير المحدود لي، وغيرتها الفائضة من أمي مريم، وجب عليّ تقديم فروض السمع والطاعة لها حتى مماتي.

مأساة أن تكون بانتظار الاهتمام من أشد الناس قربًا منك، أن تسعى في إبراز نفسك وسط الحضور وينكُرك الموقف، وتكون على دراية مؤسفة من أنك على الأرجح – بالتأكيد – جزءٌ منهم تقبّلوك أم لا، أن تعتاد المستحيل قدر المستطاع، وأنت على أشدِّ اليقين بفقدانك الاستمرارية.

مرت الأيام، وزادت الأعباء على ظهري، وعندي إيمان تامّ بأني لن أعود لصفوف الدراسة من جديد، باتت سمية مرتاحة جِدًّا بعد تجنيدي كخادمة تحت قدميها، فرضت عليّ الاستيقاظ عند الخامسة فجرًا، والبدء في تحضير الإفطار وتنظيف الحوش، وسقي الزراعة، وإطعام العنزة المربوطة، ومن ثمَّ تنظيف كامل غرف المنزل، والبدء في تحضير الغداء، وغسل الملابس ونشرها حتى موعد إعداد العشاء وغيرها الكثير، وتتعمّد دائمًا فرض فوضاها؛ كي أعاود التنظيف، دون شكر أو ثناء.

سماءٌ دامية اللون..

أقفُ قرب العنزة، أطعمها بعدما خرجت سمية لتزور أحد الأقارب، يدخلُ أبي للمنزل ويجلس في الحوش، تقدّمتُ بعجلة

حاملة دلة القهوة، صببتُ مُرّها في فنجان مزخرف وقدمته لأبي، أخذه من يدي وهو يرمقني بنظرة غريبة..

- أتعلمين أنكِ تشبهين أمكِ رحمة الله عليها؟

صدمتُ ورددتُ عليه: ولكنها كانت تخبرني بأنني نسخة منك.

هَزّ فنجانه ووضعه أرضًا قائلاً: شبيهُ الأب ذكره دائماً، لا امرأة تشابهني.. عودي لإطعام العنزة بسرعة.

وضعتُ الدلة أرضًا وجلستُ قائلة: أبي، هل يعجبكَ حالي هكذا؟ لقد منعتني سمية من مزاولة المدرسة.. وقد فاتني الكثير.

رَدّ غير مبالٍ: اسمها خالتي سمية، وثانيًا هي تريدكِ أن تتعلمي كيف تصبحين ربة منزل ممتازة، فعندما يتقدم لكِ العريس ستكونين على أتمّ الاستعداد.

نفختُ بثقل: أبي دراستي لن تؤثر على اهتمامي بالمنزل، أنا بكركَ ولستُ خادمة عندها!

قام وقال غاضبًا: كفاكِ ثرثرة يا بنت، بِكْريَّ شهابٌ لا غير، وأمر مدرستُكِ مرفوض، وسمية أدرى الناس بتعليمكِ!

قلتُ موقفةً حركته: وهي ليست أمي، أنا أدرى الناس بمستقبلي، ولماذا لا تعامل آية بالمثل، ها هي تزاول المدرسة دون أعباء منزلية، تحبها وتكرهني، أنا بكركَ لا هي، وأمي حبُك الأول لا سمية، إن كنت تريد الحق فجنّدْ آية خادمة برفقتي، هذا إن

استطعت مواجهة سمية بالأمر.

صَدّ ليردّ، فوجد الباب مفتوحًا وسمية وآية قد سمعتا كامل الحوار، دخل غرفته غاضبًا وأغلق الباب، تقدمت سمية شامتة:

- لن تكوني آية.. لقد بان فيكِ عرقُ الساحرة أمكِ.. بدأتِ تغارين من آية.. سأقول لكِ شيئًا واحدًا فقط: أنتِ شيءٌ.. وآية شيءٌ آخر تمامًا.. ولن تصبحي مثلها مهما اجتهدتِ!

صَبَّتْ كلامها ولحقت به وأغلقت الباب.. تقدّمت مني آية، ورمقتني بنظرة استهزاء جديدة على ملامحها! ثم دخلت غرفتها، وبقيتُ وحدي، دون أحدٍ كالمعتاد.

حَلّ المساءُ الدَّامس..

دخلتُ الغرفة استعدادًا للنوم، لم تبدِ آية أية رد فعل حتى الآن وكأنها لا تراني، حاولتُ إحداث بعض الضجة الخفيفة لتبدأ الحوار، إلاّ أن الصمت كان جوابها، استسلمتُ للأمر وسحبتُ طرف اللحاف؛ كي أخلد للنوم، فتحدثت:

- من اليوم، فصاعدًا ستنامين على الأرض.. السرير سريري والغرفة غرفتي، خذي لحافكِ ووسادتكِ ولا تقتربي مني!

رددتُّ باستغراب: لماذا؟ ماذا فعلت؟

قالت بعصبية: لا أطيقُكِ.. وهذا عذرٌ كافٍ.

رددتُّ بهدوء: آية أنتِ أكثر من يعرفُ ما بداخلي.. والآن تقولين

إنكِ لا تطيقيني؟

وانفجر بركان غضبها قائلة: في طريق العودة اليوم حذرتني أمي منكِ ومن حقدكِ وأنكِ نسخة مصغَّرة من أمكِ، عارضتُها وعاندتُها وجمّلتُكِ قدر ما أقدر بعينها، ولم تمر دقائق معدودة حتى سمعتُ كلامكِ مع أبي ضدي! تحاولين معه أن يعاملني مثلكِ، ويقعدني في المنزل بجوارك؟ تعاتبين حبه لي؟ أتنوين السعي في أن يكرهني؟ كل ما قالته أمي في حقكِ أنتِ وأمكِ صحيح.. وأنا كنتُ أغالطها دائمًا مخدوعة، وقد كُشِف الأمر الآن.. لسانكِ لا يخاطبُ لساني، ولا أريدكِ أختًا بعد الآن.. أنتِ مجردُ عاملة في هذا المنزل، وأنا لأني أعطفُ على حالكِ أسكنُكِ في غرفتي.. فهمتِ؟

وأغلقت نور الغرفة، وقطعت آخر خيط يصلني بها.. نامت آية وتركتني على الأرض أغرقُ بدموعي، وكلماتها أسهمُ تخترقُ شعوري.. صدمة جديدة، خسارة جديدة، ووحدة أعمق، « أذكرُ تلك الليلة جيّدًا « لم أكن أبكي فقط، كنتُ أتقيّأ كتمان أهوال ما سقط عليّ مؤخرًا، قمتُ لأفتح الدولاب، وجدتُ أمي فيه.. سحبتُ الدمية بخيوطها ووضعتُها قربي وبكيت، أحتضنُ أمي الراحلة، فروحها تستوطن الدمية، والدمية تستوطن حضني.

أذكرُ جملة كانت تخبرني بها أمي بشكل متكرر: (لا تسلمي الحياة نفسكِ وتبكين لاحقًا.. لأنكِ أنتِ التي أهديتِ الذي لا يُهدى)، كنتُ صغيرة على فهمِ كلمات الجملة، أو بالأدقّ كنتُ أتجاهل الفهم لوجود أمي، فحتى إنْ صحّت المقولة وبكيت، ستمسحُ أمي دموعي، وستشدّ بيدي للأمام، لم أكن أعلم أنها ستغادر مبكّرًا، فقد غيّرت كلّ المخطط فعله، فاليوم لا وجود لمن يمسح دموعي، ولا وجود لتلك اليد الممدودة.

مرَّتْ قرابة الثلاثة أشهر دون جديد.. لا نسيت، لقد دخلتُ سن العاشرة.. دون أي تغيير بالطبع، فما زلتُ تلك الخادمة المكروهة.. قسوة سمية، كراهية آية لي والتي ازدادت فيها لحَدّ أنها باتت تطردني من الغرفة، وأنام وحيدة في الحوش، وكأنني معزة من مَعِز المنزل، كانت نظرات شهاب الحنونة تشعرني ببعض الأمان، إلاّ أنه كان يخاف أمه بكثرة، فكان يكتفي بالنظرات لا غير، ونسيان أبي لي، وفوضوية إسحاق اللعينة، وما زلتُ ممنوعة من مزاولة المدرسة، فبتُّ أتلصَّصُ على كتبِ آية خِفْية لأتعلّم ما تحطّ عينَيَّ عليه سريعًا، إلاّ أنها مؤخراً قد أحسّتْ بتلصّصي، فباتت تترك الكتب في مكان أجهله كي لا أمسكها، وليلي برعاية دموعي وذكريات أمي والدمية.

وفي صباح هذا اليوم، حدث ما زادني هَمًّا، ألمٌ في المعدة فظيع يزاولني منذ أيام، إلاّ أنه اشتد كثيرًا هذا الصباح..

الذبابُ والبعوض المتجمهرون من حولي لينهشوا بعضًا من دمائي المكتئبة، شعور من اليأس والغضب يتملكاني، كتمة الطقس باتت تخنقني، وصراخ ذلك الديك اللعين الذي ستنفجر حنجرته وما زال مستمرًا في النواح، أقوم غاضبة وأرمي اللحاف، أذهب للحمام، أراني في المرآة بشعري المنكوش ووجهي الباهت والعرق المتراكم على ملابسي إثر حرارة الطقس، أزفر غضبًا وضيقًا، أخلعُ ملابسي وأُغطِسُ جسدي بالماء البارد، دفعةٌ تليها أخرى، تليها أخرى، وما زلتُ غير قادرة على خلعِ الشعور المقزز من جسدي، أتوعدُ سمية أشد التوعد، طاقة تحدٍّ تراكمت في عقلي.. لن أعمل، أنا لستُ بخادمة، ولا أطيقُ الحال هذا، وسأسكن في منزل أمي ولوحدي، وسأضرب كلّ من اعترض حتى وإن كان أبي.

خرجتُ من الحمام بغضب.. أين الجميع؟ اليوم إجازة نسيت، وأبي قد ذهب للعمل بالتأكيد، ارتديتُ ملابسي والملل يكادُ يقتلني، سأخرج وألعبُ وأستعيد تلك الصغيرة المفقودة، فتحتُ باب المنزل وخرجت.

حياة لم أشاهدها منذ قديم الزمان.. سِكَكٌ تضجُّ بشرًا، حكايات كثيرة، وكأن الزمن وقف بي فترة طويلة، دون أن يفتكروا بي وبحزني وعذابي، تقدمتُ قرب محلات الباعة، أمشي دون أن يأبه بي أحدٌ، هل تناساني الجميع؟ لقد كنتُ

مشاكسة الحي قديمًا، والكل يعرفني ويعرفُ أمي، يقف الحاج علي داخل محله وهو يعرضُ خاماته الملونة، تقدمتُ بفرحة له، فأمي زبونة دائمة عنده، ودائمًا كنا نأتيه سويًّا.

- بكم سعر قطعة القماش هذه يا حاج؟

قال دون أن يلقيني أيَّ اهتمام: اذهبي يا فتاة.. يبدو أنكِ صغيرة وغير جادَّة.. لا تعبثي معي، فأنا مضغوط.

رحلتُ حزينة، كيف لم يتعرف عليّ؟ كان يُجلسني فوق طاولته حينما يبايع أمي القطع، والآن لا يعرفني! تقدمتُ راحلة لقلب السوق المزدحم، أقف لترتسم البسمة من جديد على وجهي، إنه الساقي أحمد، يسقي كل مفاخِر بيوت الفريج بالماء، وكان حينما يسقي فخار بيتنا يرشُّ ما تبقَّى منه على رأسي، تقدّمتُ بسعادة:

- هل هناك المزيد ليُرشّ على رأسي؟

أداروجهه، رمقني باستغراب ورحل! رحل دون أن يهتف بكلمة، هل لا يراني الناس اليوم؟ لمَ يتجاهلني الجميع؟ مشيتُ بثقل بين المحلات، ووقفتُ قرب أحد المحلات متكدرة الخاطر والفؤاد، هل تناسوْنِي فعلاً؟ أم أنهم لا يذكرون سوى أمي؟ وصمدتُّ مكاني والحزن يتملكني.

غريب يتحدث: من الغريب أنكِ لم تأخذي حبة من التمر المصفوف؟

أدرتُ ظهري بتعجب، لحظة تأمل، العم عباس!

- آسفة لم أنتبه لكَ يا عم.. كيف حالك؟

رد بابتسامة مجعدة: ولكني لمحتكِ منذ دخولكِ للسوق يا ابنتي، أنا بخير يا حلوة.

قلتُ بارتياح: لوهلة شككتُ بأن الجميع لا يذكرني.

رد قائلاً: لقد ازدهر جسدكُ وطولكِ، واختلفت ملامحكِ قليلاً، ربما لهذا السبب لم يعِرْكِ أحدٌ الاهتمام.

قلت باستغراب: ولكنك عرفتني؟

قال ضاحكًا: ندبة متوسطة على رقبتكِ، من يلاحظها لن ينساها أبدًا.. خذي هذه التمرة.

مددت يدي وتناولتها بصعوبة..

قال مستغربًا: ما بكِ؟

رددتُ: لا شيء يا عمي، ألم بسيط منذ مدة، لا عليك، سأرحل الآن وشكرًا لأنك لاحظتني بين نسيانهم.

ابتسم ملوّحًا لي، جريتُ بسعادة مريحة، والنسمات الحارة تداعبُ جسدي، اقتربتُ من بقعة تجمهرت فيها صديقات المدرسة، وما إن شاهدنني حتى تقدمن لاحتضاني وجرّي للّعبِ معهنّ.

على عتبات الرمال، أقفزُ بين المربعات بكل خِفّة، يمين شمال، خطوتان للأمام وأخرى للخلف، ضحكٌ، مرحٌ، وارتياح، أيامٌ

اشتقتُ لها كثيرًا، لعبتُ وكأنني جائعٌ حُرِمَ الطعام دهرًا، تناسيتُ كلّ شيء تلك اللحظة، حزني، وغضبي، وألم بطني، وهروبي من المنزل، وعشتُ بين طيّات تلك الرمال الجافة، ليتني أبقى هنا للأبد، لا شمس تغيب، ولا رحيل، أو جديد حزين، احمرّتْ وجنتاي حَرًّا، واختضت أمعائي لعبًا، قرابة الساعتين من القفزواللعب، إلى أن أوقفتني أحداهن قائلة:

- مهرة.. ما هذا الدم الذي ينزل على ساقكِ؟!

- دم؟ أي دم؟

نعم إنه دم، يا إلهي هناك دم ينزل من جسدي! جلستُ بسرعة خائفة، رفعتُ رأسي لأراهن خائفاتٍ كذلك، هل سأموت؟ وجريتُ تاركةً المكان والدموع على وجهي، اقتحمتُ المنزل بسرعة، توسطتُّ الحوش وأنا أبكي منهارة.

تتقدّمُ سمية من الغرفة بغضب: أين كنتِ يا ساذجة؟ ألم أنهكِ عن الخروج؟

شاهدت دموعي وقالت: ما بكِ؟ لِمَ شكلكِ مريبٌ هكذا؟

قلتُ منهارة ساقطة: سوف أموت, انظري هناك دماء على ساقي، دماء من جسدي!

ووسط انهياري رفعت يدها فوق شفتيها، وحركت لسانها مصدرةً زغاريدَ متتالية.

- هل هي سعيدة لموتي؟

بعد أسبوع من تشخيصي لدماء موتي..

تغيَّر تعامل سمية معي كثيرًا، أصبحت تعاملني بالحسنى، وتجلسني ناهية الجهد الجسدي لي، تأخذني معها للتبضُّع، اشترت لي الكثير من الملابس، وبعض حيول الذهب، ونقشت كفّيْ يَدَيَّ بالحناء، باتت تهتم بأكلي ومشربي، وتجعلني رفيقتها في كل زياراتها لنسوة الفريج، بات أمر حنّيَّتها يربكني كثيرًا، إلاّ أنني كنتُ مستمتعةً حقّاً، خفّ ألم بطني قليلاً بعد ما اشتدّ لقرابة الأربعة أيام، كانت الدماء الخارجة تميتُ حياتي، استسلمتُ للموت وتقبّلتُ الفكرة، فمهما كان سبب موتي سوف ألتقي أمي بالنهاية، وظل التساؤل الأهم؟ لمَ تتبضع سمية لي هذه الحاجيات وموتي قريبٌ جِدًّا؟

غريبٌ هو شعور الموت، أن تكون على يقين تامّ بأنك قد أوشكت على الرحيل رغم أن الحياة تنبع فيك، تمامًا هذا هو الشعور.

عصرٌ حنون..

غيوم ساحرة، وشمس معتدلة..

أجلسُ في غرفتي أُلاعِبُ الدمية، رسمتُها هذه المرة كطالبة متفوقة في المدرسة، تقضي جُلَّ وقتها مع عائلتها الحنونة، والجميعُ يحبها دون استثناء، تجلسُ آية على الكرسي تكتبُ بعضاً من فروضها المدرسية، كنت أضعُ تلك الحيول بيدي

الضعيفة، وقد ألبستني سمية ثوبًا رقيقًا جديدًا، وأخبرتني بأن بعض النسوة سيزرننا اليوم ويجب أن أجلسَ معهن، وقالت إنها ستناديني رغم أن النسوة قد حضرن ويجلسن معها في الحوش، حقيقةً لا خاطر لي في مقابلة النسوة، فحكاياتهن تصيبني بالملل الشديد، ويكبرنني سِنًّا، وكلماتهن مثل الألغازِ المعقدة، إلاّ أنني مستمتعة من حنية سمية عليّ، فما المانعُ في أن أكسب ودّها لي؟ ربما تعيدني للمدرسة، وتعدل بيني وبين إخوتي.

تذكرتُ موتي، وضعتُ دميتي على جنب، ورفعتُ رأسي لآية..

قلتُ بأمل أن تجاوبني بحب: هل تكرهيني حقًّا يا آية؟

لم تُعِرْ سؤالي أيَّ اهتمام..

أكملتُ المحاولة: أقسِمُ بأنني لم أقصد ما قلت، كنتُ أريدُ إقناع أبي بحالي اليائس فقط.

ردَّتْ بغضب: وتكسبين ودّه بأن تكرهيه بي!

رددتُ بهدوء: أعتذر، كلها أيامٌ وسأذهب بعيدًا عند أمي، ولن تريني مجدّدًا.

قاطع حديثي صوت سمية من الخارج..

(سمية) برقة: حبيبتي مهرة تعالَيْ، وألقي التحية على النسوة.

قفزتُ من مكاني، وقد رمقتني آية بنظرة احتقار غبية؛ بسبب اهتمام أمها المبالغ فيه بي، تقدمتُ قرب الباب وتذكرتُ دميتي،

وقررتُ أن آخذها معي كي أعرّف النسوة عليها، فقد أختلقُ معهن حديثًا يُعجبني، سحبتُ الدمية بخيوطها المتدلية، وهممتُ بالخروج، وقفتُ لوهلة وأنا أجدُ سمية تجلسُ مع امرأتين لم أرهما من قبل، تقدمتُ بمهل وخجل وألقيتُ التحية، ارتسمت البسمة على وجهيهما، ردتا السلام وألقيتا عليّ نظراتهما من رأسي وحتى قدميّ، استغربتُ الحال المربك هذا.

(سمية) بكلِّ أدبها: يمكنكِ العودة لغرفتكِ يا فؤادي.

انطلقتُ بعجلة للغرفة وكلي استغراب، أغلقتُ الباب واستندتُ عليه، ونبضي يزداد رعبًا وفضولًا، ولم تمرّ ثوانٍ حتى زغردت سمية بأعلى صوتها الحادّ..

سقطت مني دميتي، هذه المرة.. ربما هي سعيدة لأن هناك من سيشتري جثتي بعد الممات!

كان ذلك المشهدُ صعبًا عليّ، لم أكن بكامل أريحيّتي، فمؤكد موتي قد حان، الملابس والذهب سوف يدفنون معي في قبري؛ كي أرتديهم تحت الرمال، بالتأكيد إن أبي وضع بعض الحوائج لأمي حينما دفنها، ولكني لم أكن موجودة يوم الدفن، من المؤكد أنه قد نسي بعضًا من حوائجها، استلقيتُ للنومِ وكلّي حزين، لماذا هم فرحون بدلاً من حزنهم عليّ؟ ألهذه الدرجة وجودي يضيقُ صدورهم! والسؤال الأهم متى سيحين موتي؟ فنزول الدم أوشك على الانتهاء، ولم أمت بعد! احتضنتُ دميتي بشدة،

يجب أن ترافقني في القبر، فلا أحد سيهتم بها من بعدي، ولن أهديها لأحد من الأساس.

ظهر اليوم التالي..

خرجت سمية من المنزل وقد أوصتني على مراقبة الغداء كل حين كي لا يحترق الطعام، أمسكتُ المكنسة وبدأتُ أكنسُ الحوش من ملل الحال، فُتِح الباب وانطلق إخوتي في المنزل بعد عودتهم من المدرسة، تقدمت قربي آية، ورفست كومة الغبار مصدرة زوبعة رملية ودخلت غرفتها، ضحك إسحاق بقوة وغادر بعدها، نزلتُ على الأرض لأحمل المكنسة التي سقطت، تقدم شهاب وحملها قبلي..

(شهاب) بهدوء: تعلمين أنها لا تقصد.

رددتُ بابتسامة كاذبة: لا عليك اعتدتُ غضبها.

(شهاب): دعيني أكملِ التنظيف، يبدو عليكِ مرهقة.

وقفتُ قائلة: لا لا أنا أنظفُ من شدة مللي، صدقني لم تأمرني والدتُكَ بشيء، فهي تعاملني برقة هذه الأيام، ربما لأنني سأموت.

(شهاب) باستغراب: تموتين؟!

قلتُ بغصة: نعم سوف أموت، وهناك امرأتان غريبتا الأطوار اشترتا جثتي بعد الممات.

(شهاب) بغرابة أكثر: سمعتُهم يقولون إنكِ سوف تتزوجين من شقيق المرأتين.

هتفتُ بغباء: ما بك يا شهاب؟ أنا أحتضر منذ أسبوع، وكلتا الحاضرتين اشترتا جثتي.

أمسك يدي فاحصًا حرارتها: أقسمُ بأنك لن تموتي، لقد سمعتُ أمي وهي تخطط لحفل زفافكِ، سوف يقام في منزلنا يوم الخميس.

فتحتُ عينَيّ مصدومة: ولكن.. والدم؟ كيف سوف أتزوج؟ ولِمَ أتزوج؟

(شهاب): سوف تصبحين مثل أمي وأبينا، سيصبحُ لكِ منزلٌ خاصٌّ، تلعبين فيه وحدكِ، وسأقيمُ عندكِ في الإجازات، وسأصبحُ صديق زوجكِ.

رددتُّ بحماس: ولكن من هو زوجي؟ هل هناك أحدٌ في المدرسة على وشك الزواج؟

(شهاب): لا أعلم ولا أظن، ربما هو من مدرسة أخرى، ستلبسين الثوب الأخضر، وسنأكل الحلويات، وسنرقص يا مهرة.

قفزتُ فرحًا: هذا يعني أنني لن أموت، سوف أكون عروسًا مثل القصص التي نسمعها! لا أصدقُ هذا، سوف أجعلُ لكَ غرفة خاصة في منزلي.. حتى تبيت معنا.

ضحكَ بقوة وحماس..

وانعقدت تلك الليلة تحت حلم الزفاف الوردي، لم أستطع كتم السر، أخبرتُ أمي بداخلي، وهمست الخبرلدميتي، ونمتُ ليلتها بسعادة لم تفارقني.

وحانت اللحظة..

ليلة الخميس الموعودة، حوش اكتسى أضواء الفرح، وأجود روائح البخور والعود والطيب، صوت الطبول وزغاريدُ نساء الفريج، أجلسُ في غرفتي وأنا أرتدي ثوبي الأخضر، وخيوط الذهب تنسدل مع تموُّجات شعري الممشوط، حمرة حمراءُ جريئة، حيول الذهب تملأُ يَدَيَّ ورجليّ، أجلسُ أمام المرآة، أراني في المرآة، أشابه أمي كثيرًا، بحمرتها وتموّج شعرها، وحضورها وروحها الطيبة، حلق الأذن ثقيل الوزن يجعل من رأسي كعمود الميزان ما إن مال يمينًا حتى اعتدل ومال لليسار، خاتم يزاحمُ أصابعي الصغيرة، ذهبيٌّ مصفرٌّيتوسطه حجرٌأحمرُلامع، أزفر توتُّرًا ورهبة، يُفتحُ بابُ الغرفة، تدخلُ سمية ومن بعدها آية، تقتربُ مني سمية وكلها سعادة، تزغردُ عشرات المرات وهي تتحلّى بشعري واطلالتي وثوبي، تقفُ آية عند الباب دون أية رِدّة فعل، تعطيني سمية بعض الإرشادات عن الحفل، وتخرجُ مسرعةً كي تتراقص على أحلى نغمات الزفاف، ما زالت تقف آية مكانها، وعينها عليّ، أبادلها الصمت وأنا أشاهدها بانعكاس

المرآة، تدمع عيناها وتخرجُ فورًا من الغرفة، وكلها صمتٌ..
أغمضتُ عينيّ وقلتُ:
- سأجعل لكِ غرفة خاصة في منزلي، حينما تعودين أختي من جديد.
مرت الدقائق..
بابٌ يُشرع، أقفُ في منتصفه، تبدأُ الطبول بالصراخ، والنساء يغنّين زفَّتي، أمشي على مهل كما أوصتني سمية، تمشي هي بقربي، أراقبُ الجميع ذهولاً، لِمَ يرمقونني بهذه النظرات المخيفة؟ هناك عشرات النساء غيري في البيت، ولم يَحْلُ لهنّ النظر إلاّ إليّ، أقتربُ من الكرسي الأحمر، أجلسُ يمينًا برِقّة، رغم أن الثوب ثقيلٌ كاد أن يسقطني عدة مرات، شعور غريب مخيف، أفكرُ في أمي، لو كانت هنا، كيف ستكون رِدّة فعلها؟ هل ستكون سعيدة بحَدّ سعادة سمية؟ جميعهن يتراقصن ويتمايلن أمامي، والسعادة تغمرُ وجوههن، تناسيتُ كل شيء وفكرتُ في منزلي، وغرفي، وذلك الغريب الذي سيشاركني ألعابي وغرفتي.
حان وقتُ الرحيل، انتهى الزفاف الذي كاد يقتلني مللاً، لم يتركوا لي المجال لأرقص، لم أرَ صديقاتي، ولم آكل شيئًا من الطعام، وكأن الزفاف زفافهن.. حضرت شقيقتاه لأخذي لمنزلهم.. نزلت على جسدي عباءة سوداء كاتمة، كانت أول مرة

أرتدي فيها العباءة، غطوا فيها جسدي ورأسي ووجهي، جسدي بات ثقيلاً جِدًّا، ولا أرى شيئًا أمامي، سلمَ عليَّ بعضهن، وحملن حقيبتي التي جهزتُها البارحة، اجتاحني شعور عدم الرغبة في الاستمرار، لا أريدُ بيتًا جديدًا، ولا رفيقًا يشاركني ألعابي، ولا أريد الذهب والثوب والزفاف، اغرورقت عيناي بكتمان، أريد إنهاء هذه الليلة الخانقة، ودَّعتْني سمية بسعادة كادت تذبحها، وسحبتني إحدى شقيقتيه للرحيل، تذكرتُ دميتي، لم آخذها معي، أدرتُ رأسي وساعتها أغلِق باب منزلنا.

- انتظري لقد نسيتُ دميتي بالداخل.

قالت بنبرة عصبية: لم تعودي طفلة، أنتِ زوجة أخي الآن، والدُّمى للأطفال.

نويتُ الهروب إلاّ أنها أقفلت علي يدي بشدة: ولكنني لن أذهب معكما من دون الدمية.

ردّتِ الأخرى بهدوء: زوجةُ أبيكِ وضعت لكِ الدمية في الحقيبة، لا تقلقي.

في غرفة طينية واسعة، أجلسُ على السرير الضخم، إضاءة فنر صفراء، أجلسُ بتعليماتٍ جديدة من شقيقتيه، تخبراني بطريقة جلوسي وكلتاهما ترتبان لبسي وطرحتي الخضراءُ المطرزة الثقيلة، وحمرة شفتاي، غالبني النعاس الشديد، والحزن على دميتي المنسية، فقد كذبتا عليّ، ولم أجد الدمية

حينما فتحتُ حقيبتي، صوتُ نحنحة من الخارج، قفزت كلتاهما مردّدتان: لقد وصل.

خرجتا للخارج، وتركتاني بحزني جالسة على السرير، تصلني بعضُ ثرثرتهما، لا يعنيني، أودّ خلع ملابسي وخلع هذا اليوم الكئيب من ذاكرتي، فُتِح الباب بمهل، خفضتُّ رأسي خوفًا وفقًا لتعليماتهما، وتطريزُ الطرحة الذهبي ينسدل لمنتصف وجهي، تنحنح مرة أخرى بعدما أغلق الباب.. قدمان ضخمتان تقتربان مني، قلبي يخفقُ بقوة، خوف يجتاحُني، يدٌ تقتربُ من وجهي لتحمل الطرحة وتسقطها على السرير، أرفعُ رأسي، وإذْ برجل ضخم طويل القامة، عمره بعمر أبي أو أكبر بقليل، بلحيته السوداء، وبشته الأسود الذي يعتلي كتفيته، رمقني بذات الصدمة، جلس قربي.

- أنتِ العروس؟!

هززتُ رأسي بخوف ودموع: هذا ما أخبروني به!

قال برجفة صوت: ولمَ أنتِ تبكين؟

انهارت عيناي أمام جملته: لم يسمحوا لي بجلبِ دميتي.

قفل على يده، وقال متداركًا الموقف: لا تبكي سوف أحضرها لكِ، ولكن أخبريني.. كم عمركِ؟

قلتُ ببعضِ الاطمئنان: عمري عشرة.

أخفض رأسه، ووضع كلتا يديه على طرفيْ رأسه، أمسك رأسه

واتسعت عيناه، كانت ملامح الصدمة باديةً عليه، وقف وقال: بدِّلي ملابسكِ وارتاحي، سوف أذهبُ لجلبِ دميتكِ، وسأعود.

خرج وضرب الباب وراءه، سمعتُ صوت الحرب التي أشعلها بالخارج مع شقيقتيه، وصلتني بعض كلمات الحرب: طفلة.. زواج.. أبويها.. ودميتها.

والأهم كان دميتي بالتأكيد، سوف تنامُ بحضني، وهذا ما يهم.

في مكان لستُ فيه..

يُقرعُ باب المنزل بقوة شديدة، استيقظ أهل المنزل بخوف، انتشرت الأضواء في المنزل فجأة، يُفتحُ الباب.

- تبيعُ طفلتك بهذا الرخص يا نوخذة؟

ردّ (محمد) باستغراب: خالد؟ ما الذي جاء بك بهذا الوقت؟

(خالد) بغضب: ما الذي كنت تريدني أن أفعله بمثل هذا الوقت؟ أن أعاشر طفلة لا تُدركُ في الزواج شيئًا؟

رد (محمد) بغضب: إنها زوجتُكَ الآن، وتم الزواج برضاك.

(خالد): لا تستفزّني يا محمد، ابنتُكَ طفلة، ولم يخبرني أحدٌ بذلك.

(محمد): وأنا لم أضربك على يديك كي تأخذها، ابنتي خُطِبت من شقيقتيك، وتم الزواج بشهادة أهالي الفريج.

(خالد) بغضب فظيع: أحمقُ أنت؟ ابنتك تبكي؛ لأنها نسيت دميتها، فكيف تريدُ منها أن تفطِنَ إلى معنى الزواج! كيف يهون

عليك أن تبيعها بهذا الرخص؟!

(محمد): اسمعني، إن كنت لا تريدها أعِدْها لي، وانتهى النقاش!

اقتحم خالد بغضب عتبات المنزل، ووضع يده على عنق محمد خانقًا إيّاه بقوة، وقال صارخًا: أردُّها لمن؟ أخبرني؟ لِلّذي سيبيعها لغيري بعد أن تنتهي عدتها، سمعتُكَ للأسف لم تكن بمحلها، ليتك بربع ما سمعتُ عنك من أهالي الفريج، اسمعني، لن تراها في حياتك أبدًا، وهي ملكي الخاص، وإن لمحتُ أي فرد منكم يقتربُ منها أو يبحثُ عن حالها بالسؤال سأقطِعكَ إربًا، سمعت؟

ترك خالد عنق محمد الذي يحاول استنشاق الهواء بصعوبة، ولفّ وجهه فوجد ولدًا صغيرًا واقفًا، صرخ به: أنت، اذهب واجلب لي الدمية بسرعة.

جلب الولدُ الدمية بخوف، وسلّمها خالد، أخذها ورمق محمّدًا باحتقار.. بصق عليه وخرج غاضبًا.

هواء أبردُ من هواء غرفتي، قبضتُّ بيدي على أحد أطراف اللحاف، خفضتُّ نصف وجهي أسفل اللحاف، رائحة سجائر عتيقة تفوح منه، حركتُ رجلي لأتحسس المكان، ملمسٌ جديدٌ، أحتضنُ شيئاً أنا! أتحسس الشيء، وإذْ بدميتي! نحنحةٌ غليظة، فتحتُ عينيَّ بسرعة، وجدتّهُ أمام المرآة ينسفُ غترته، لاحظ استيقاظي.

- صباحُ الخير.. هل ارتحتِ بنومكِ؟
اعتدلتُ بسرعة: صباح النور، نعم لم أشعر بعودتك، متى جلبت دميتي؟
- عدتُّ متأخرًا البارحة، دخلتُ وكنتِ قد غططتِّ بنوم عميق، وضعتُ الدمية قربكِ ونمتُ على الأرض.
صددتُّ لأجد أثر نومه أرضًا: أنا آسفة، لقد أخذتُ سريرك.
ابتسم ضاحكًا: لا عليكِ.. هيّا بدِّلي ملابسكِ؛ كي أعرفكِ على منزلكِ الجديد.

نهضتُّ بحماس، وضعتُ دميتي على الوسادة، وفرشتُ اللحاف على جسدها، لم تنم جيّدًا البارحة، اقتربتُ منه، شعرتُ بأنه أبي الجديد، احتضنته بسرعة وسط صدمته الضاحكة وذهبتُ للحمام.

خرجتُ بعد حمّام سريع ساخن، وجدتُّ ثوبًا جميلاً معلّقًا ينتظرني، لبسته بحماس، مشطتُّ شعري، وتعطرتُ وخرجتُ على مهل جاهلة المكان، كان منزلاً أوسع من منزلنا، يحتوي غرفًا كثيرة، وغرفة خاصة للجلوس، حوش تملأه الطيور الحرة وأشعةُ الشمس الدافئة، تتوسطه نافورة متوسطة الحجم تُخرجُ ماءً لينسدل على شعرها، وطيرٌ ملونٌ عملاقُ الحجم لم أَرَ بزينته من قبل، اقتربتُ منه مبهورة، ريشه الكثيف الطويل يزحفُ كطرحة عروس زاهية، مسجّلُ الراديو يغرّدُ بأغانٍ

عربيةٍ ساحرة، اقتربتُ من الطير العملاق، جلست القرفصاء طالبةً لمس ريشة واحدة منه، صوتٌ ضاحك:

- يدعى طاووس.. ولكن أولادي يطلقون عليه لقب (الملون).

وقفتُ بسرعة وابتسمت: إنه جميل حقًّا.. هل لديك أولاد؟

ابتسم: نعم، اثنان.

قلتُ بحيرة: إذًا، أنت متزوج؟

رَدَّ بسرعة: توفيت زوجتي منذ عام.

رددتُّ: مثل أمي.

حكّ رأسه وميّله: نعم عندي علمٌ بذلك، تعالَيْ لتفطري معي، وهذا موعد استيقاظ الأطفال.

لحقتُ به بعدما دخل لغرفة المعيشة، مائدة إفطار أرضية، بيضاوية الشكل، مُلئت بكل ما لذّ وطاب من الطعام، لبنة وزيتون وثلاثة أصناف من الخبز، وأنواع الجبن، ودِلال القهوة والشاي والحليب، دُهِشتُ بجوعي، جلس ورحَّبَ بي على المائدة، دخلت إحدى عاملات المنزل جالبة بعض الصحون صغار الحجم فيها من العسل والقشطة وزيت الزيتون، صوتُ أبواب تُغلق، وقدمان صغيرتان تتقدمان قربنا، يدخلُ ولدٌ صغيرٌ بشعر منكوش، يتقدّم بشغب لاحتضان أبيه بكل شوق، وتدخلُ من خلفه فتاة لطيفة، جميلة جِدًّا، ناعمة الملامح والشعر، وخصلة ضئيلة تتدلّى من أعلى وجهها حتى فكِّها،

تقدّمت مرحّبة بسعادة، قبّلتْ رأسه، وتقدّمت نحوي للسلام، وقفتُ بدوري رادَّةً عليها السلام، جلسا حول المائدة..

- لا أعلم إن أخبروكِ باسمي أم لا.. أنا خالد، أرملٌ ولديّ بنت وولد، بكري هذه الجميلة (خلود)، وآخرعنقودي هذا المشاكس الجميل (أحمد).

ابتسمتُ بسعادة لهما، فقد رحَّبَ بداية ببكرِهِ البنت، ولم يخجل منها، عكس ما حدث معي.

(أحمد) بتعجب: أبي، من هذه؟

قال وهو يحضنُ رأسه الصغير: هذه ابنتي الجديدة مهرة، أختكم.

وابتسمتُ بخجل.. أصبح لي أبٌ جديد.

بدأنا في الإفطار.. كان خالد أبًا صادقًا لهما، لم أرَ بحياتي مثل دلاله وحنانه عليهما، كانوا تلك العائلة التي أضع دميتي بأحداثها خيالاً، بطيب الكَلِمِ، والتعبيروالأحاسيس، كان لا يأكل شيئًا إلاّ بعد أن يطعمهما بيده، «أذكرُ شعورًا انتابني وسط تلك اللحظة»، بأنك أيًّا من كنتَ خارج هذا المنزل، فأنت واحدٌ منهم بداخله، شعورٌ تحسّه دون أية بوادر تمثيلية، إحساس هو فقط، لا يُشترى أبدًا.

قام خالد للاغتسال ولتبديل ثوبه بعد أن تناثرت عليه قطرات من العسل وزيت الزيتون، وأخذتُ أدردشُ مع خلود وأحمد

بسعادة، عرفتُ أن خلود تبلغُ الخمسة عشر عامًا، وأحمد يبلغ ستة أعوام، يدرسان في مدرسة قريبة من المنزل، وأبوهما صاحب مصنع صغير متخصص في صناعة السفن البحرية، وكل البحارة في البقع القريبة منا والدول المجاورة زبائنُ دائمون عنده، وهذا سبب خيره الوفير، توفيت أمهما قبل عام بشكل مفاجئ، قيل لهم أزمة في القلب قد أصابتها، ووسط تعريف خلود لحياتهما انتشرت ضجة عارمة في المنزل، صراخ أطفال وتهديدات أم، صدمتُ بأن هذه الضجة خارجة من هذا المنزل الهادئ! رفعتُ رأسي وإذْ بشقيقته الأمسية قد دخلت والعبوس والضجر يكادان ينفجران منها، وأطفالها الثلاثة يتشاجرون على لعبة خربة، وقفت ورمقتني بحقد فظيع وقالت:

- استيقظتِ إذًا، هل بكيتِ كفايتكِ بالأمس على دميتكِ المفقودة؟ يا لعثرتنا بكِ يا طفلة! لقد غشَّتني سمية حينما نويتُ خطبتكِ لأخي، قالت إنكِ عاقلة إلى حد الكفاية، وتستطيعين تحمل إدارة المنزل وأسرته، لم أعلم أنكِ بنتٌ غبية تفضل الدُّمَى على الأزواج والاستقرار، تناولي طعامكِ هيّا، ولا تنسَيْ إطعام دميتكِ؛ كي لا تموت من الجوع.. بنتٌ ساذجة!

ألقت كلماتها وسط صمتي التام، لا أعرف ماذا أقول حتى، لم تترك لي المجال من الأساس، دفعت شجار أبنائها للخلف، وجلست أمامي لتتناول الإفطار، بان الإحراج على خلود، والتي

سكبت على الفور كوبًا من الحليب لعمتها؛ كي تهدئ من روعها، شعرتُ بما يكفي من الحرج والإهانة، وجب عليّ القيام ومغادرة هذه الغرفة لتجاهل هذه المرأة، وقفتُ معتذرة وتحركتُ بضع خطوات المغادرة، لتوقفني بكلماتها مرة أخرى:

- إلى أين؟ تعالَيْ واجمعي هذه المائدة، وأشْرِفي على الخادمات وقت الغسيل، ومن ثمَّ داومي وإياهنّ على تنظيف غرفنا والمنزل!

وقفتُ بصدمتي!

وقفت بغضب وقالت: لن تخدعيني بهذه الطفولة الغبية، إذا كنتِ تنكرين معنى الزوجة، فلا أعتقدُ أنكِ تجهلين معنى الخادمة.

اقتحم خالد الغرفة بغضب وصرخ منهيًا الضجة:

- هذا منزلي يا سلوى، وأنا الآمر الناهي فيه، لديّ ما يكفيني من العاملات، وإذا كنتُ بحاجة لعاملة جديدة، فأنتِ أكثرُ جدارة بهذه الوظيفة، ستبقى مهرة ابنتي، ولن أفرق بينها وبين بنتي وولدي، ستُكملُ تعليمها، والمنزل منزلها، وستنسى أهلها، من باعوها كسلعة رخيصة، وأنا أخذتها ولن أضحي بها كي أسعِدَ الجيران، لا بأس بأن أكون أعزبَ طالما أنني أرعى أولادي، ولن أسعى لتحقيق مراد الجميع في أن أتزوج فقط لتكتمل تلك الشجرة العائلية أمام الجميع، دون أية مراعاة لكواليس العائلة

التي لا تظهر أمام الناس، ومهرة ستبقى زوجتي على الورق، وستعيش أميرة في المنزل، ولن أرضى بكلمة تمسّها، فكرامتها من كرامتي.. سمعتِ؟

جرت سلوى بغضبها للغرفة، ولحق بها أبناؤها خوفًا، صمتٌ آخرُغريبٌ يجتاحني، وسعادة غامرة تُذيبُ آلام الماضي، خرجت خلود بهدوء وهي تمسكُ يد أخيها، وقفتُ وإيّاه وحدنا، بادرتُ بالاعتذار، جلس نافخًا غضبه، ومسح على رأسي.

- مهرة ابنتي، المنزل منزلكِ، بالأمس حينما ذهبتُ لجلبِ دميتكِ، وعتاب عائلتكِ صُعِقتُ من برودهم وعدم مبالاتهم بكِ، تشاجرتُ معهم، وأقسمتُ بأنهم لن يروكِ بعد الآن، أريدُكِ أن تنعمي بكل ما حُرمتِ منه، ولا تأخذي بكلام شقيقتيَّ، فأنا ملزوم برعايتهما؛ كوني أخاهما الوحيد.. شقيقتي الكبرى تدعى جميلة وهي متزوجة وتسكن في دولة مجاورة، وتأتي لزيارتنا مرة كل عام أو عامين، وعندما أتت أصرت على أن تزوجني وتخطب لي فتاة ووقع عليكِ الاختيار، أقسمُ بأنني لم أعلم بأنك صغيرة إلى هذا الحَدّ، لم يخبرني أحدٌ إطلاقاً عنكِ، وأختي الصغرى سلوى هي التي شاهدتها للتَّوِ، مطلقة ولديها ثلاثة أبناء وتعيش معي، أعلمُ بصعوبة التأقلم مع الجديد، إلاّ أنني متيقّن من أنكِ ستُعجبين بأن تكوني فردًا في هذه العائلة، لا أريدُ منكِ سوى أن

تكملي تعليمكِ، وأن تصبحي امرأة يُعتمدُ عليها في المستقبل، وأن تعيشي سِنَّكِ لا أكبر، مع ابنتي وابني، هل أنتِ موافقة.

« أذكرُ أنني شبثتُ يديّ بقلق، وخوف، وحب، وألفة، تناقضات المشاعر المربكة»

أخذتُ نفسًا وقلت: هل لي أن أناديكَ أبي إذًا؟

ابتسم وشرع يديه لحضني، وقال: أنا أبوكِ ما حييتُ يا مهرة.

الأمان.. أن تستطيع الخلود في النوم دون قلق، أن تستيقظ دون أن تُراودُكَ فكرة النوم من جديد لنسيان الهموم، أن يبتسم قلبك قبل شفتيك، أن ترمي بهمكَ للآمنين دون أن تشعر بيأس الحل، أن تحمد الله في كل سجدة ألف مرة على نعمة من حولك، أن تنطلق في طرق وعرة شائكة وكلك ثقة بأنك حتى وإن اوشكت السقوط هناك من سينتشلُك قبل وخزة الشوكة أو ضياع الطريق.

في هذا البيت العظيم.. الذي فيه كل ما هو مختلف عن المعتاد، كان في إحدى غرف المنزل غرفة خاصة لأبي خالد، تحوي مكتبه الخاص، ومكتبة عملاقة تضم مئات الكتب الثقيلة، فهو يقضي جُلّ وقته في تلك الغرفة.. إنها جميلة رغم ظلامها، ولم أكن أدخلها إلَّا لثوانٍ معدودة؛ كي أسلِّمَ خالدًا كوب القهوة، ولكني فور أن أخطو خطوتي الأولى أشعر بدفء الكتب وعمقها، كانت ذات ملمس جلديّ جذاب، تُشعِرُكَ

بحلاوة الكلمة التي تذوب في فمك لتتسلَّلَ إلى عقلك، وترويه عالمًا لا يُرى.

دخلتُ عليه ذات مرة والقهوة تفوح من الكوب الذي بين يديّ.. سلمته الكوب ووقفتُ محلي سارحة.. ابتسم ورفع الكتاب الذي توجّهتْ عيناي عليه، وقال: هل شدّكِ غلافه؟

ابتسمتُ بإحراج: نعم بصراحة، كل كتبك مغرية الشكل، ولكني أخافُ محتواها.

ضحك وترك كتابه على الطاولة، ووقف: كنتُ شابًّا صغيرًا، ولي دكانٌ صغيرٌ ورثته من عمي، وظّفتُ به أحد رجال الفريج، كان معروفًا عنه أنه قارئٌ ويبيعُ الكتب في منزله، استغربتُ رجاحة عقله، وتقبّله للحال والكلمة منه تختلف عن باقي كلماتنا، وجدته يقرأُ وقت العمل ذات مرة، وكنتُ غاضبًا لأسباب أخرى.. تقدَّمتُ نحوه وسحبت منه الكتاب بغضب، ونهرته.

قاطعته صدمة: نهرته لأنه يقرأ.

ردّ محرّكًا رأسَه: ولأن حاله مستفزّ، وبروده قاتل، أتعلمين ما المضحك حينها؟

- ماذا؟

أكمل مبتسمًا: إنه لم يغضب مني، ولم يحرِّكْ ساكنًا، وأراني أنه قد أنهى كل مهامّه التي وكّلتُه إيّاها، وردّ عليّ بابتسامة ورحابة صدر: هذه هي قراءتي الثالثة لهذا الكتاب، لا تُرجِعهُ

لي، خذه لمنزلك واقرأه أنت، وصدقني أنك ما إنْ تنهيه سترى العالم بنظرة مختلفة كليًّا عن نظرتك الحالية.

رددتُّ بفضول: وهل قرأته؟

حمل الكتاب من على الطاولة: هذه هي قراءتي السادسة للكتاب، ودكاني أصبح من أكبر دكاكين الفريج، وتجارتي في ربح مستمر متصاعد، وما عدتُّ أغضبُ لأتفه الأمور، وأردُّ إساءة الغير بإحسان، أصبحتُ كحاله الذي كان يستفزني به، وأدركتُ راحة هذه الحياة.

صفقتُ بحماس وقفزت: أودُّ قراءته أنا.

ضحك وقرص خدي برقة: محتوى الكتاب صعبٌ عليكِ جدًّا، سأعطيكِ من كتبِ خلود ابنتي، التي جلبتها خصيصًا لسنّها.

لم أكن أعلم أن الكتب ستسرقني عن كلِّ ما حولي، ولم أدرك أنني لا أريد الخروج من الكتاب أساسًا، وأصبحت الكتب عادتي، كتابٌ يليه آخر، يليه آخر.

كان أبي خالد من أندر الرجال آنذاك بالطباع والفكر، كان رجلاً شهمًا لا يخافُ شيئًا، ولكن العنف لم يَسْرِ في دمائه، إنه قارئٌ بشغف، ولكن الكتب لم تسرق عينيه حسبما يُقال لنا دائمًا، خيره وفيرٌ؛ لكنه – رغم هذا- لم يعدّد ويلعب بالنسوان.. بِكْرُهُ بنتٌ ..لكنه ما أنزل رأسه بسببها قطّ.. بل كان يفخرُ بها أينما ذهب.

وهنا ندركُ أن الفعل أيًّا كان ما يُشاع عنه، سيكون هناك فاعلٌ يستخدمه بطريقة لائقة مختلفة، وقد تروق للجميع، إلاّ أن الجميع لا يريدُ التغيير، فالقافلة بنهاية الأمر ما زالت تسير، ونُباحُ الكلاب بازدياد، دون سببٍ مقنعٍ لضجَّة النُباح!

كانت خلود مأمني الأقرب في هذا المنزل.. حنونة بعمق.. جملة لا تقبلُ التفسير، تكسرُكل حواجز الحوار، وتحتضنكَ بكلمة أو نظرة، من حسن حظي أنني حظيتُ بها أختًا لي، كانت أصغر من أن تكبر عمرًا، وأكبر من ضيق الفكر والسعادة، جارتي بالغرف، وأقضي أيامي في غرفتها متناسية غرفتي.. فقط لأبقى قربها، كان دلال أبيها لها سببًا وجيهًا في رونق شخصها.. فتاة حرة في عالم لا يقبل حرية المرأة، إلاّ أن أباها كان عالمها، فهي حرة في عالم حر لا يقبل القيود الغبية وسط مستنقع الفكر الفحوليّ المحدود، فكان أميرًا بها، وهي تستحق مكانتها تلك، تعلمتُ منها الكثير، وبدأ بستان فكري في النمو، شتلة تليها أخرى، طفلة تليها امرأة عاقلة راشدة، لأكسر كل مفروض جاهل، في عصر تربّي فيه الأمُّ ابنها ليمسك أممًا، وحينما يتولى منصبه يقر بعظمة الرجال، ونقص النساء!

مرت الأيام..

وأصبحتُ أقيسها بالسنوات، أيامٌ طويلة جميلة هادئة، كبرتُ من خلالها كثيرًا، أصبحتُ امرأة، وزاد ترابطي بهذا المنزل، حقيقة غدوتُ جزءًا منهم وصاروا كلي، سيطر الكِبرُ علينا جميعًا.. أبي خالد الذي بدأت تلك الشعرات البيضاء تغزو رأسه وكان مستمتعًا بها واصفًا إيَّاها بالوقار، ويرفض قصَّها، أو صبغها حتى، وظلت روحه مرحة لا تكبر إطلاقًا، ما زال الأب الحنون لنا، المثقف الواعي والمدرك، وخلود الجميلة كبُرت، وتخرجت من المدرسة، ودخلت (كلية التربية) وتخرجت فيها أيضًا، وها هي قد تزوجت لتَوّها من زميل لها في الكلية يدعى «عيسى»، وانتقلت للعيش معه، شعرتُ بالوحدة القاتلة من دونها، ظلت مدة طويلة تواسيني، وتحاول قدر المستطاع أن تزورنا كل يوم؛ كي تطمئن على حالنا، ولتكسر اشتياقي لها الذي لا يُكسرُ حبًّا، وأحمد دخل الإعدادية وأصبح عاشقًا لكرة القدم.. بِتُّ لا أراه كثيرًا؛ بسبب انشغاله الدائم باللعب خارجًا، بات حنونًا كثيرًا عليّ، يحاول مراضاتي بسبب غياباته المتكررة بلفائف الشاورما، والفلافل التي يعلم أني أعشقها.

خلال الثمانية أعوام الفائتة.. تُوُفِّيتْ ابنة سلوى شقيقة أبي خالد، انكسرت كثيرًا، وباتت في عالم الظلام الدامس، لا تقوى على الحراك والخروج من دارها حتى، بتُّ أخدمها بكل طاقتي،

رغم كل ما حدث بيننا إلاّ أنها تحتاجني أكثر من أي وقت سبق، وأصبحتُ أهتم بولديها؛ كونها قد أهملت كلّ حياتها.. حاولت الانتحار مرتين! ولكنها لم تُصِبْ عِرْقَ الموت، حينما علِمَ طليقها بالأمر تقرَّب إليها، وحاول إصلاح ما فات قدر استطاعته..

بات يهتم بولديه، ويحاول الحديث مع سلوى رغم صَدِّها الدائم، وعاد ليخطبها من أبي خالد، والذي فرح كثيرًا بالخبر، وحاول بلطفه إقناع سلوى بالعودة إليه، والزواج منه من جديد لتعود لحياتها السابقة، وفعلاً أصابت توقعاتنا، وعادت له وأنجبت فتاة جميلة قبل زفاف خلود بأيام...

أما علّتي الدائمة، فهي شقيقته الكبرى «جميلة»، فلقد أصبحت تضايقني بشدة بكلماتها وأفعالها، وقد انتقلت هي وعائلتها للعيش بالقرب منا، فباتت تزورنا بشكل شبه يوميّ، ولا يروق لها موضوع تبَنّي خالد لي كبنت له، فتحاول جاهدة كسر أبُوّته وتذكيره بأنني زوجته، وقد بلغت سِنّ الرشد والأنوثة الفائقة، وأنه حان موعد دخوله عليّ، لم يقتنع أبي خالد بحوارها، ولم يحادثني بالموضوع إطلاقًا، فكلّ ما قيل حاولت هي إيصاله لي فرضًا، وبالمثل تفعلُ مع أبي خالد، إلاّ أن الفكرة مرفوضة من كلينا، فأنا أراه أبي، وهو يراني ابنته، (وتبًّا لعَقْد) الزواج الغبي ذاك.

وأنا.. مهرة الراشدة.. الفاتنة – كما يقال لي دائمًا – بلغتُ سنَّ الثامنة عشرة، فتاة ناعمة.. شعري طال كثيرًا بسواده اللّامع، وجسدي كبُرَ بمنحنياته الرقيقة، أخذتُ أشبه أمي كثيرًا، ليتها موجودة كي أخبرها بأني نسخة منها لا من أبي، ما زلتُ أحتضنُ دميتي حينما أنام، وما زلتُ أضعها قربي أينما كنت، أدرسُ في عامي الأخير في المدرسة، ولم يتبقَّ لي الكثير وأتخرّج، طيلة تلك الأيام لم أرَ فيها أبي ولا سمية وإخوتي، ولم يحاولوا وصالي حتى، وأظن أنني لا أريدهم أيضًا، ولا أطيق فكرة وصالهم تلك، فمنذ فراقهم فارقتُ كلّ همٍّ وغَمٍّ، أصبحتُ أنا بكامل قناعاتي وأرْيحيَّتي، لستُ ملزمة على العمل كخادمة، أو كعنزة تنامُ في الحوش، أو تلك المكروهة التي لا يطيقها أحدٌ إطلاقاً.

وانتهت الاثنا عشرعامًا التي قضيتها في الدراسة المدرسية، أعوامٌ طويلة مررت من خلالها بعدة شخوص، فكنتُ الفَرِحَةَ، والبريئة، والحزينة، والمكسورة، والغاضبة، والعروسة، والمرأة، دخلتُ المنزل بكامل فرحتي وأنا أحمل شهادتي، جميعهم بانتظاري في الحوش.. شرع أبي خالد يده، فركضتُّ، واحتضنته باكية من شدة فرحي.. بينما خلود تقف بعينين دامعتين وهي تمسح على بطنها المنفوخ، أما سلوى وزوجها، فينثران الحلوى والنقود على رأسي، زغاريدُ ودمعات فرح وسعادة، وأحمد الذي يتربّعُ الأرض متناولاً الحلوى الساقطة وهو يضحكُ ويغني.

عزيزي جسدُ الإنسان..
لك منّا خالص التعازي والأحزان..
فكلُّ ما فيك حسَّاسٌ مرهفٌ..
وكلّ ما نُهديه لك سُمٌّ مرهق!
١٩٧٧

بعد مرور خمسة أعوام..
أخرجُ من حقيبتي حمرة الشفاه.. ألطِّخُ بها شفتيَّ احمرارًا..

أخبرُك سرًّا عزيزي أنت عالمه غير فاهمه.. ضع يدك في منتصف صدرك ومِلْ به قليلاً لجهة اليسار، اصمد لثوانٍ وستشعرُ بالحياة، تلك المضخّة العضلية التي تتحكم بحياتك احتملت ما فوق قدرتها للحفاظ عليك وأنت غير آبهٍ بها، تختبئُ وسط ٢٤ ضلعًا؛ كي لا يتهاطل عليها ما يُعطّل حمايتها لك، تنصدمُ من كرهك وغضبك، وفقدانك لأحاسيسك.. تنصدمُ بسُمِّ الكلام والغباء والحقد.. تحاول بكامل قدرتها الصمود على الضخ، رغم انعدام رغبتك في الحياة، تجازف قدر استطاعتها، تمدُّ لك ما ينقصك لتعيش.. تحاول الاستمرار لتعيش قادرًا، تلك العضلة كالأنثى الرقيقة، تؤذيها فتسامح، تكسرها فتجبرُ نفسها بنفسها، تعطّلها فتجاهد الخراب لتنبض لك، أخبرُكَ سِرًّا يا عزيزي بأنها بحجم كف اليد التي توجه فيها ضربة لها حينما تغضب، وأنها تمرضُ، فتشفى لأجلك، وتُصابُ بحمّى

النقصان من إهمالك النفسي والجسدي، وتعوّضُ نقصها بصبرها لك.

أرجِعُ الحمرة للحقيبة، أتفقدُ الوضع خارجًا، أنفشُ شعري وأضعُ ربعًا من كلا الطرفين على كتفيَّ...

اتجه بيدك لوجهك، وتحسّسْ عينيك، هي لسانك الصادق دائمًا، لا تعرف النفاق أيًّا كان شخصها، تبتسمُ فتفضحُكَ الدمعة، تغضبُ فتفضحك رِبْكة البسمة، تحاول الصمود، فتهزمك الغمضة، تشعر بخيانتهم، فتفضحك النظرة، ترمشُ كثيرًا، فيعرفون انزعاجك، تكتشف ارتباط رِمْش كليكما في ذات اللحظة، فتضمن الحبَّ.. ترمشُ مرة بخلاف المعتاد، فتحاصرك صدمة الحدث.

أتذكرُ العطر، أخرِجهُ وأبخُّ منه على ملابسي، ورشّتينِ على شعري، ومثلها على عنقي، وأخرى يتيمة في كَفّ يدي..

أخبرك سِرًّا آخر تحت بند الإسراف العضليّ، تستخدمُ وقت ابتسامتك ١٧ عضلة، ووقت تجهّمك تستهلك ٣٤ عضلة.. كنْ بخيلاً بعضلاتك، ووفّرْ عناءَ الكَدَرِ للأبد.

أغلِقُ السيارة، أمشي بكامل أنوثتي.. كعبٌ عالٍ راقٍ، تنورة تبلغ حَدَّ الساق.. نظارةٌ شمسيةٌ رقيقة.. خطوة، اثنتان..

وعن ضعف حيلتنا، فقلبُ الرجل أكبرُ حجمًا من قلوب النساء، ورغم ذلك تُخبئُ الرجل في قلبها وتُخرجُ نفسها، وهو يشكو من

ضيق القلب، وعدم توفر الفرصة.

في مَمَرٍّ طويلٍ يكتسحه بياض الرخام والجدران والسقف.. مقاعد متفرقة على جوانب المَمَرّ.. ثلاث نوافذ تكشف الطريق.. أمشي فيها بكلّ سعادتي وشعوري، وشعري الأسود الرقيق يتمرجحُ يمنةً وشمالًا، أرتدي المعطف الطبيّ الأبيض، بقلم في الجيب العلوي، وبطاقة معلقة تتدلَّى من عنقي كُتِب عليها اسمي.

دخلتُ كلية الطب، وها أنا في عامي الدراسيّ الأخير، حدثت أشياء كثيرة، ومرت أيام كثُر بحُلْوها ومرّها.. بات الفريج مدينة عامرة تضجّ مبانِيَ ومنازلَ حديثة وطرقات إسمنتية، وآثار الأقدام مَحَتْها عجلات السيارات، والدكان تنكر بمسمَّى السوبر ماركت، توسّعت الديار، وزادت البيوت فخامة، وضاقت قلوب الناس وكلٌّ أصبح لنفسه قامة، قامة «نفسي نفسي»، أصبحت الحياة في نظري شيئًا اعتياديًّا متكرّرًا، كم هو لطيف ذلك الاعتياديّ! يضعك في قاعدة الأمان والسلم من منعطفات الهموم والحزن، إلاّ أنه مُمِلٌّ بعض الشيء، فلا جديد يحدث، كلٌّ على ما عَهِدتُّهُ دون جديدٍ يُذْكر، البيت كبُر كثيرًا، واختلف موقعه إلاّ أن باطنه باقٍ كما هو.

انتهى وقت العمل.. أخرج من الكلية، الطقسُ الحار المعتاد، تنتظرني سيارة حمراءُ فارهة نادرٌ وجودها في الشوارع، أُدخلُ المفتاح بكامل سرعتي، أضغطُ حقيبتي على جنب، وأديرُ المفتاح مشعلةً بعض الضجة، أديرُ محرك المكيّف لتنهال عليّ النسماتُ الباردة، أغمضُ عينيّ لوهلة، أعود لطبيعتي، أتلفتُ يمينًا وشمالاً وأقود سيارتي عائدة للمنزل.

أقف مغلقة السيارة أسفل شجرة تتزاحمُ فيها الأوراق الصغيرة مصدرين ظلاً طويلاً كثيفًا، أنزل بحقيبتي، أتجه قرب باب المنزل، أمسكُ قبضة الباب، وأشد السلك كي يُفتح، أدخلُ والهدوء يعم الأرجاء، أمشي والكعبُ ينادي بأصحاب المنزل.

- أبي.. أبي هل أنت هنا؟

لا مجيب، يبدو أنه في الخارج، دخلتُ غرفتي، ووضعتُ الحقيبة على السرير وذهبتُ لغرفة أبي، قرعتُ الباب دون إجابة فدخلت، وجدتُّه يجلس على السجادة في مرحلة التشهد، أبتسمُ لا إراديًّا وإذا به يُسلم يمنة وشمالًا، نظر لي وابتسم، باتت تجاعيده واضحة تزيد وسامته، بشاربه الكثيف المصبوغ، وشعر رأسه الذي بات يتراجع للوراء متناسيًا الظهور، وقف وحمل السجادة مربّعًا إيَّاها، تقدمتُ نحوه وقبَّلتُ رأسه.

- جئتِ مبكّرًا، من المفترض أن تأتي بعد ساعة ونصف.

- اليوم اختبار الدفعة الثانية، وأنا انتهيتُ بالأمس من هذا

الاختبار، فعدتُّ كي أشرف على العاملات في تحضير الغداء.

- بارك الله فيكِ يا ابنتي، ألن تأتِيَ أختُكِ خلود اليوم.

- بلى لقد أبلغتني بأنها ستأتي فور انتهاء ابنتها من الدراسة، وسيحضرُ زوجها معها.

- حسنًا.. سأساعدُكِ في الغداء إذًا.

ضحكتُ: أنت والغداء؟ يبدو أننا سنأكل السواد المتحجر اليوم.

ضحك وهو يسبقني للمطبخ: سأعدّ طبقًا وأنتِ طبقًا، وسنرى ما رأي لجنة التحكيم بهذا.

لحقتُ به: لا، لا متأسفة ستغلبني بالتأكيد.

مائدة مُزيّنة بكل لذيذ، مستطيلة الشكل تحوي ثمانية مقاعد، ثلاثة على اليمين ومثلها على اليسار، ومقعدين متقابلين على رأس المستطيل، أضعُ الأطباق على مهل؛ كي لا أفسِدَ نظافة الطاولة، والعاملات يضعن الصحون والملاعق بترتيب.

يدخلُ أحمد العائد من الجامعة بجوع شديد: جائع يا أبي جائع!

يذهب ويقبل رأس أبيه، ويسمع محاضرته اليومية حول أهمية السلام عند الدخول، يتقدمُ نحوي، ويقبل رأسي كالمعتاد وهو يردّد جملته اليومية:

- سلمتْ يداكِ زوجة أبي الغالية.

أضحكُ بقهر الجملة: أبي، انظر ما يقوله.

يضحكُ أبي: لا عليكِ منه، أنتِ ابنتي أكثر منه.

يقتربُ منّا أحمد: اعترفا من أيِّ مسجد التقطتُّماني.

يضحكُ الجميع.

ضجة بسيطة في المنزل.. وصلت خلود وأبناؤها.. يدخل زوجها عيسى وهو يحمل طبقًا أعَدّته خلود في منزلها، وحقائب الأبناء متدلّية من كتفه.. أضحكُ على معاناته الثقيلة.. أرحبُ به، ثم تدخلُ خلود المنتفخة إثر حملها الثالث.. أقبلُ خدَّها وأحمل ابنتها «مهرة» سَمِيَّتي، وابنها صالح الذي ما إن دخل حتى تعلّق على ظهر جدِّه كي يلاعبه.. امتلأت تلك المائدة بالألفة والأحاديث والشوق.

أجلسُ مقابل أبي خالد، الذي أصبح يقضي جُلّ وقته برفقتي، أذكرُ في عامي الرابع في الجامعة أنه قرر أن يسلم أحمد العمل والمحلات.. والذي كان قد تخرج لتَوّهِ من المرحلة الثانوية، وأصرّ عليه أن يكمل تعليمه، وأن يوفِّقَ بين العمل والدراسة، حتى يعتاد التجارة منذ صِغَرِه، ويتخرّج وهو مدرك لِلّذي سوف يواجهه، منذ أن دخلتُ هذا المنزل وأنا أعلم أن أمنية أبي أن يكتب رواية، وينشرها باسمه، وبعد قرار تركه لعمله، فقد بات يقضي جُلّ وقته في القراءة والأبحاث والكتابة، كان يريدُ أن يترك بصمة خالدة له قبل رحيله؛ كي لا ينسى، وليس لديه أدنى علم حول موضوع إذا نسيه العالم كله، فلن ينساه قلبي، فهو مَنْ جعلني اليوم امرأة لها كيانها وحريتها واحترامها.

وخلود حبيبة قلبي وأختي التي لم تلدها أمي، فهي الآن أم حنونة لملاكين والثالث في طريقه للخروج، لا أخبئُ عليكم فرحتي الكبيرة حينما أنجبت بنتًا وقررت تسميةُ بكْرِها على اسمي.. أذكر أنني بكيتُ كثيرًا ذلك اليوم، فقد تأكدتُّ من أنني جزءٌ منهم حتى وإن لم تربطنا دماءٌ واحدة، فالعائلة أمان، لا دمَ قد يفسدُ في أية لحظة، وأنجبت بعد عامين شَقِيَّ العائلة صالح، ذلك الذي يشبه جَدَّه خالدًا لحَدٍّ كبير، وهو صوتٌ للعائلة وصورة من كبيرنا، فقد حَظِيَ بدلال شبيهه ما سيشبعه الدهر كله، أما زوجها عيسى، فهو حنونٌ عليها بشدّة، ويحبّها كثيرًا، دائمًا حينما تودّعني، تخبرني بأن يرزقني الله بزوج مثله بحنانه وعاطفته وكرمه، لا يردّها مهما طلبت، وكم شعرتُ بحلاوة الحب بسببهم!

وآخر العنقود أحمد، الذي كبُرَ على يديَّ، والآن يقبّلُ رأسي بالصاعد والنازل، أشعر كأنني أمه، لقد كبُر بحضني، ورَبَّتْه قساوتي، وخرجته كلماتي، وخطت اللحية محل قُبلاتي، بات شقيًّا هو الآخر للغاية، بتّ أشمُّ به رائحة السجائر، وأحيانًا تقعُ عينيَّ على رسائله اليدوية، التي فشل في إيصال تعابيره الصريحة من خلالها، فيرميها في القمامة، ويعيدُ الكرَّة مرارًا، ولكنني أعلمُ أنه يفعلُ ما يفعلُ بنيّته السليمة، فهذا حال شباب هذا الجيل، وكلي ثقة من أنه لن يفعل إلاّ الصواب،

أذكره جيّدًا حينما يرتكب خطأً في صِغَرِه كان يعاقبُ نفسه، فيصوم عن الجميع في غرفته، يجلسُ ويلوم نفسه وخطأه مرارًا حتى يمشي على درب الصَّواب، وهذا الشيء الذي لا أتمنى أن يخسره يومًا.

أما سلوى، فقد سافرت مع زوجها وأبنائها للشام، وأصبحوا يقيمون هناك بشكل دائم مع زيارات خفيفة علينا، كم أفتقدها وأفتقدُ كلماتها اللَّبِقة معي! كانت صديقة لفترة من الزمن.

وليت أن تتعلم أختها جميلة منها، فعلى مرور كل تلك السنين ما زالت تتشاجرُ معنا في كل زيارة، أنتِ زوجته لا ابنته، وأنت زوجها لا أبوها، لا شيء غير هذا المَوَال السخيف المتكرر، وتخرجُ بكامل غضبها، وكلما أحسّت بالسعادة اشتاقت للنكد وعادت لزيارتنا، دون فائدة!

أبتسمُ لحياتي هذه، فمهما حصل لن أعيش كَدَرًا وسطهم، أعيش لحظاتي السعيدة بكامل معناها معهم، أبتسمُ.. أحملُ الملعقة الطائرة وأقربها لفم سَمِيَّتي، وقطعة من فؤادي.

انتهت الزيارة على خير، مرهقة كثيرًا والنعاس يكادُ يقتلني، أذهبُ لغرفتي بعد اطمئناني على أبي، وبعد مروري قرب غرفة أحمد لكي أودِّع صوت العندليب وهو يردد ويزيد ويعيد أغنية: «يا مالكًا قلبي»، أبتسمُ رغمًا عني، وأهِمُّ لغرفتي بتعب.. أطفئُ الأنوار الصاخبة.. أتمدّدُ وأفتحُ الباب لمخيّلتي بالتحليق

بي للبعيد، أقف من خيالي لوهلة.. أصدُّ يمينًا.. أراقبُ دميتي بحماس، أحتضنها بشوقٍ مريبٍ، وأغوص في عالم الأحلام وإيَّاها.

حينما كان أحمد صغيرًا، سألني لماذا لا تموت نار الشمس حينما تغوص في البحر، أخبرتهُ بأن البحر من شدة عشقه للشمس لا يلمسها ويتركها تنام في فراغ حتى ترتفعَ من جديد ومن ثمّ يسدّ البحر بموجه ذلك الفراغ.. أذكرُ أنني في طفولتي سألتُ أمي السؤال نفسه، وأخبرتني بأن الشمس عدوّة الماء، إذا نعست وسقطت فيه فإنها تكره قربه، فتبتعدُ عنها حتى تُشرق، كلتا الجملتان بذات العبرة، وأدركتُ أن الجواب حسب حال البشر لا أكثر، كبرتُ أكثر، وأدركتُ أن الشمس لا تلمسُ البحر أساسًا، ربما لأن الصدفة تخشى فراقهما، فإن أحبَّا بعضهما لا النار تهوى المياه، ولا الحرارة تفهم البرد، مثل حورية البحر التي أحبت بشريًّا، إن أرادا اللقاء هي لا تقوى بُعدَ الماء، وهو لا يستطيع الصمود دون هواء.

أجلسُ في عربتي المركونة وأنا أرى كتلاً من الطلبة يهمّون بالدخول، أضعُ حمرتي وأتفقدُ شعري.. رشّتان من العطر الذي جلبته لي سلوى من الشام، أنزلُ على عجلة لضيق الوقت، أدخلُ لغرفة القياس، أقف لوهلة إدراك، معطفي من المفترض أن يكون معلّقًا هنا! أبحثُ عنه بكامل ضياعي وفقداني على

السيطرة، ليس مرميًّا على المقاعد، ولا معلّقًا في مكانه الأمسيّ.. كلّ المعاطف قد أخذت والجميع في غرفة التدريب إلاّ أنا، لا أحدَ موجودٌ كي أستفسره، أتمالك أعصابي التالفة، أمشي في الممرَّات وأنا أتفقد كل المعاطف المُرتداه، اسمي ليس عليها، أين معطفي إذاً؟ لا وقت، بدأ التدريب منذ خمس دقائق، أطرق الباب وأدخل.

- متأسفة دكتور على التأخير.

تحوَّلتْ كلّ أنظار المتدرّبين عليّ، أقف بإحراجٍ وقهرٍ مريبَيْن، يرفع الدكتور رأسه نحوي بوجهٍ خالٍ من التعابير:

- أقبلُ اعتذار تأخيركِ، ولكن لا أقبلُ اعتذار عدم جاهزيَّتِكِ، وارتدائكِ للمعطف الطبي.

- لكنني بحث..

- لا أريدُ نقاشًا حول الموضوع، اخرجي من الغرفة حالاً!

لم أتخيّلْني يومًا في موقف محرج كهذا، رجعتُ بكعبي بضع خطوات للخلف، وابتسامة مزيفة ترتسمُ على وجهي، أغلقتُ الباب وخرجت، تحولت الابتسامة لعبوس كئيب، ثلاثة مقاعد فارغة تنتظرني بأحد المَمَرّات.. جلستُ على أحدها والغضب جليسي الثاني، لم تمرّ دقائق معدودة حتى فُتِح باب الغرفة، ناظري للأسفلِ يأسًا.

صوتٌ غليظ: مهرة محمد؟

رفعتُ رأسي بعجلة: نعم إنها أنا.. هل طلبني الدكتور؟

قال بعجلة: متأسف جِدًّا، شعرتُ بضيق المعطف عليّ اليوم، وبعدما تفقدتُّه وجدتُّ اسمكِ عليه، وخرجت على الفور لأُلاقيكِ، أعتذر مجدّدًا.

مدَّ يده وسلمني المعطف، استلمته بربكة وفقدان للرد.

ردَّ قائلاً: إن أردتِّ سأدخل وأشرح للدكتور عن الخطأ الذي حدث؛ كي تحضري التدريب.

رددتُّ عليه: لا بأس فاتتني البداية، ولا أطيق فوات اللحظة، لن أحضر التدريب.

قال بعد نحنحة: أنا سالم، لكِ جميل عليّ ردُّه لكِ في أيِّ وقتٍ تريدينه.

رفعتُ ناظري لناظره: لا بأس واعتذارك مقبول، ولكنْ هل لي بسؤال؟

سالم بعجلة: بالطبع تفضلي.

قلت بتفكير: لم أجدْ معطفك في الغرفة.

ابتسم محرجًا: لقد سكبتُ القهوة على معطفي بالأمس، وأخذته للغسيل، ونسيتُ أمره لاعتيادي وجوده في غرفة التبديل.

ابتسمتُ لبلاهته: أقدرُ خروجك ومجازفتك بردِّ المعطف لي.

سالم بربكة واضحة: بما أنه لا يوجد تدريب اليوم، فهلَّا نشرب

قهوة في ردهة الجامعة؟

وقفتُ بابتسامة: من الواضح أنك تريدُ سكبها على معطفي اليوم.

ضحك وتقدم بضع خطوات، وجاريتُ خطواته للقهوة.

قضيتُ يومها حضوري برفقة سالم، كان فارسَ أحلام قلبي، خفق له الشعور فورًا، يشبهني كثيرًا بكلِّ شيء، فهو من عشاق أغنيات «داليدا»، وتحرّكُ مشاعره وبكاؤه وفرحه «فاتن حمامة»، وناظره لا يفارقُ كلمات «نزار قباني» الحسيّة الخالدة للأبد.. كان يفوقني الطول ضعفًا، بلحيته السوداء الكثيفة، وعينيه اللّامعتين السوداوين، يهوى قراءة الشعر والإبحار في عوالم القوافي ونغمها، أسرفتُ في الحديث عن شخصي وطبعي معه.. كان سامعًا بكل شغف، ومتحدثًا لَبِقًا، ينتقي من نهر الكلمات العذبة أنقاها.

قاطعني بنظره للساعة، ابتسم قائلاً: أعتقدُ أن الدوام الرسمي قد انتهى دون أن أشعر.

ابتسمتُ ردًّا: لم أشعر بالوقت حقًّا.

وقفتُ على مهلي، وابتسمتُ: لا تَنْسَ معطفك غدًا.

ضحك: لا تقلقي لن أنساه.

رحلتُ وأنا أحتضنُ معطفي، ذلك الذي تنبعثُ منه رائحة عطره الرجالية القوية، أبتعدُ ويقلّ على مسامعه صوت

كعبي، ويختفي عن مسامعي صوت نحنحته، أركبُ سيارتي.. أديرُ المفتاح.. نسمات الشوق تهفّ في وجهي، خاطبتني ببلاهة: تعلقتِ به من موقف واحد؟!

أفتحُ درج العربة.. أشرطةٌ سمعية كثُر، أختارُ ما كُتِبَ عليه داليدا، عشيقة كل اللحظات، الحلوة والمرة، أُدخِلُ الشريط وأستمتعُ بصوتها الشَّجِيّ، وكلّي في عالم ورديّ بعيد.

على سريري الهادئ، أضع كل الأشرطة التي سرقتها من غرفة أحمد، ليست سرقة بمعناها، فقد استلفتها دون علمه لا أكثر.. حيَّرني ذوقُهُ العاشق، كل العناوين تمثلني في هذه اللحظة، فالحب أغنية عتيقة، ذلك الصوت المغبّر، والكلمات الفاتنة، وحكايات غرام أعظم المغنيين، كل ما فات له عبقٌ لا يشعرُ فيه إلاّ المغرم الحديث، نتعلقُ بكلمة، بأغنية، بموقف، بنظرة أو شجار، ونعيش في سبات اللون الوردي، فوق الغيمة تلك، في سماء المتحابين، ما لها الحياة تتلون حينما نحبُ شخصًا واحدًا، ويموت كل شيء، ويزداد الفراغ بعدما نفارق الشخص نفسه، هل هذه ألوان الحب؟ أم معصية الفراق؟!

اخترتُ شريطًا مميّزًا وجدتُّ حافظته مكسورة مخربشة من شدة الاستخدام، يبدو أنه الأقرب لقلب أحمد، وضعته في المسجلة، وانهرتُ هيامًا على السرير، أنا ودميتي، وعبد الحليم حافظ.

طرقاتٌ على باب غرفتي، فتحتُ عيني صدمة، اعتدلتُ سريعًا واغلقتُ المسجلة.

- تفضل.

فُتِح الباب، إنه أبي خالد..

- جئتُ لأطمئن عليكِ، فلم تحضري لي كوب قهوتي اليوم.

رددتُّ بعد تفكير: كيف؟ لقد أعددتها لك وأحضرتها، وسكبتُ القليل بالخطأ على الصحن الصغير!

ردّ ضاحكًا: كان ذلك البارحة، لا اليوم.

قلتُ ببراءة: أعتذرُ يا أبي، لقد نسيت.

ردّ باسمًا: لا عليكِ.. لو أردتها لطلبتها، تأخر الوقت.. تصبحين على خير.

- وأنت من أهله.

أغلق الباب ورحل، صرختُ بداخلي: ماذا حدث بي؟! هل أنا أنا؟ أم ما زلتُ عالقةً في اللقاء والبسمة وكوب القهوة.. غصتُ من جديد في سريري، خصلة من شعري على وجهي ولا حيل بي كي أرفعها، أنفخُها كي تعتلي.. لا فائدة، أحملُ يدي بثقل كي أرفعها، أشمُّ يدي وإذ رائحتها كالقهوة، أعدتُّ الكَرَّة.. نعم رائحة قهوة! متأكدة من أنني أعددتُّ له كوب القهوة اليوم، كان الحدثُ اليوم لا بالأمس! إذًا لماذا قدم وكذب عليّ؟! زوبعةُ أفكار كثيرة، انتهت بإطفائي للأضواء ونومي.

اليوم التالي..

تجربة جراحية على جسدِ دمية إنسيّة، لا أطيقُ الشرح الطويل، والكسل يتهاطل مني بشكل مريب، انتهى الدرس.. كنتُ أول الخارجين من الفصل المملّ هذا، مشيتُ لغرفة التبديل كي أخلع معطفي، خلعته وعلقته ورحلت.. اقتربتُ من إحدى النوافذ وكلّي غارق في اللّا وعي.

صوت غليظ: سارحة، أم تتأملين؟

رددتُّ بابتسامة دون التفات: سارحة متأمّلة ونائمة.

ضحك سالم..

التفتُّ وإذْ به يقدّم لي كوبًا من القهوة الساخنة.. والتي أحتاجها فعلاً، شكرته وشربتُ منها.

- لم أرك اليوم، أين كنت؟

- كانت هناك جلسةُ تدريب شعرية.

- أتكتبُ الشعر؟

- متذوقٌ مبتدئ

- توقعتُكَ قارئًا لا أكثر.

- أحبُّ أن ألقيه كثيرًا، وغدًا هناك أمسية بسيطة أعِدَّتْ من قِبَلِ طلبة الكلية، هل تنوين الحضور؟

- لمَ لا؟

ابتسم: أرجو ألاّ أرتبك بسببكِ.

ابتسمتُ: لا تذكر القهوة أبدًا؛ كي لا تضحك وتفسد الأمسية.
ضحك: حسنًا تبدأُ الأمسية في الساعة الخامسة عصرًا، ألقاكِ على خير، فلَدَيّ الكثير لأنجزه.
- على الوعد بإذن الله.
عدتُّ يومها للمنزل وكلي تَمَنٍّ بأن يقبل أبي خالد أمر ذهابي للأمسية، لم أطلب الخروج لنفس الحدث من قبل، أعددتُّ الغداء وتفنَّنتُ به، استقبلته وأحمد بأحر الاستقبال والدلال، على أمل أن أرضيه ويقتنع، انتهى الغداء وتقدمتُ بالشاي كي أريق باله..
تحرك عرق التحليل في رأس أبي خالد: ما بها نظراتُكِ اليوم؟
ابتسمتُ ضاحكة: أرجوك اقبل.
ضحك: كنتُ أعلم أن هناك أمرًا ما، قولي ماذا هناك.
- وافق قبلها وسأخبرك.
- وجب عليَّ أن أعرف قبلاً.
- أقسمُ بأنني سأخبرك بعد موافقتك.

مَلّ العناد، وقال مبتسمًا: موافق.. ولكن لماذا؟
قلتُ بعجلة وحماس: هناك أمسية شعرية ستقام غدًا عصرًا في مسرح الكلية، وأوَدُّ الذهاب.
وضع كوبه على الطاولة: مع من؟
- أصدقاء الدراسة لا أكثر، والدعوة عامة.

- منذ متى تحبين الشعر؟
- أعيش مع مكتبتك كل هذه الأعوام، وتسألني هذا السؤال؟
- صادتني الغرابة، فلم أركِ تحبين غير قراءة القصص والأمور العامة، لا الشعر!
- أرجوك وافق يا أبي، وإذا أردتَّ تعالَ معي.
- نعم سآتي معكِ.

وتبدّلت ابتسامتي صدمة: ماذا؟ ستأتي؟

رد بثقة: نعم لقد دعوتني لتوّكِ، ولن أدعكِ تخرجين وتعودين ليلاً بمفردكِ، ولم أخرج منذ فترة، وأودّ سماع كلمات تلك الأمسية.

- حسنًا على وعدنا إذًا، تبدأ الأمسية في الخامسة عصرًا.
- على الوعد لا تقلقي.

دخلتُ غرفتي، وقلبتُ الدولاب بحاجاته على السرير، هذا مكشوف والآخر صغير عليّ، هذا فاقع اللون، وهذا رسميٌّ كئيب.. هذا مناسبٌ جدًّا بتدرُّجات الأحمر الجميل، سأرتديه.

استيقظتُ يومها متأخرة وقمتُ لتجهيز الإفطار، ومن بعدها كسرة البخور لأجهز أبي وأخي لصلاة الجمعة، ومن بعد الغداء جريتُ فورًا لأتزيّن.. ارتديتُ الفستان الأحمر، ووضعتُ بعض المساحيق الخفيفة وأحمر الشفاه، رفعتُ شعري للأعلى بخصلة تتدلّى إلى حَدّ عنقي، وأخذتُ أرش العطر كي أتمّ الزينة..

نزلتُ بخطوات الكعب، طرقتُ باب غرفة أبي خالد ودخلتُ عليه، وجدتُّه يعدل نسفة غترته الحمراء.. رمق انعكاسي من المرآة، وارتسمت الابتسامة على شفتيه.

- جميلةٌ كعادتكِ يا ابنتي.

رددتُّ بخجل: وأنت أوسمُ أبٍ في التاريخ.

- اكتملت أناقته بعطره الذي رشّه.. أخذ قطعة منديل، وتقدَّم نحوي.. مدّ يده وهو يقول: امسحي شفتيكِ.

ورحل مبتسمًا..

ضحكتُ لأنه الحال المعتاد: حسنًا يا أعظم أبٍ في التاريخ.

وصلنا لمسرح الكلية.. ضجة عربات كثيرة.. وصلنا لبوابة المسرح.. جمعٌ غفيرٌ من البشر.. بناتٌ كثرٌ، شفاه حمرٌ، عطرٌ وكسر البخور الموزَّعة في الأرجاء، أمسكتُ يد والدي عند المدخل، ودخلنا للقاعة، مقاعدُ اكتست الأحمر الملكي الفخم.. نزلنا من عتبات الدرج بمهل.. في الصف الثاني جلسنا... تناقشتُ مع والدي كثيرًا إثر انسدال الستار.. أخذني بجولة حول الشعر وأنواعه وكلماته، وأشهر من فيه، صوتُ نحنحة تنبعُ من المِصدَح.. حان وقتُ البدء.. رُفِعت الستارة.. أربعةُ شُبَّان يجلسون خلف طاولة مستطيلة.. تصفيقٌ حارٌّ من الجمهور.. كان ثاني الجالسين من جهة اليمين، ابتسمتُ مباشرة حينما رأيته، كان مرتبكًا بعض الشيء، فحينما يبتسم كثيرًا، فهو في

أشدّ مراحل الارتباك والقلق، وجدتُّه يبحثُ في الأرجاء، إلى أن التقت عينيَّ بعينيه.. لاحظته قد تنفّس الصعداء.. ابتسم بخفاء، وابتدأت الكلماتُ العذبة، وُزِّعت الأدوار، والتقت القوافي والنهايات.. عتبٌ.. حبٌّ.. هيام.. ضيقٌ.. فراقٌ وحلم، حان دوره ليلقي.. أمسك المِصدَح وابتسم في البداية.. رحب بنفسه، وبدأ كلماته.. غصتُ في عالم الخيال والهيام حينها، كان لإلقائه هيْبة، بنبرته، ونظرته، وإحساسه، تحدث عن الحب في الأغنيات، وأحضان السينما، وعن فتاة تتوسط عقل شاعر مبتدئ، جميلة إلى حَدِّ الهيام.. لها ابتسامة يعجزُ عنها التعبير، وشعر يتوسطُ ظهرها طويلٌ حرير.. تحدث عن عشق الصدفة، وحب الثغرة، والنهدُ كالرمان البغداديّ، وانحناءة الخصر، ورُقيّ القصر.. أغمض عينيه، وأكمل: هل من الممكن أن نكون سطرًا يغنيهِ عبدالحليم؟ أو قصة تُخلدُ للزمن البعيد، عن رجفة النظرة، وحدة الرمش، عن أن نكون سويًّا للأبد، وأطفالٌ منّا يتقاسمون كل التفاصيل، عن نية الخلود وحيدين للأبد، دون أحد.

أنهى كلماته.. نظرتُه تقابلني وكأنها تنتظرُ ردًّا في الحال.. صفق كل الحضور، وأبي أيضًا، وجدتّه يبتسمُ ويصفقُ بحرارة، ابتسمتُ بخجل، وتمنيتُ حقًّا كل ما قاله.

انتهت الأمسية على خير، وقفتُ وإذ بأبي يعيقُ وقوفي ويخبرني

عن الانتظاركي يخف الزحام قليلاً، جلستُ وكلّي يتمنى ألاّ يأتي سالم، فإنْ رآه أبي سيختلف الأمر كثيرًا، فلا يمكن نكران كوني متزوجة منه حتى هذه اللحظة، تداركتُ السكوت والربكة..

- ما رأيُك بأشعار شباب الكلية يا أبي.

ابتسم ورد: هناك بالطبع ملاحظات كثيرة عليهم يمكنهم تجنبها في المستقبل، ولكنهم يحاربون للوصول قدر الاستطاعة، ومجهودهم يُشكر حقًّا.

ابتسمتُ للأمر..

رد وأكمل: ليت أحمد هنا، لأزعجنا من قوة التصفيق.

ضحكتُ: ليته استطاع، ولكن لديه عمل يؤديه.

قاطع الحديثَ الشبابُ وهم ينزلون من سلالم المسرح، قلقتُ وتجاهلتُ النظر لهم.

- هيا يا أبي، أعتقدُ أن الزحام يكادُ ينفد.

لف رأسه واقتنع ووقف.. مَرَّ سالم من أمامنا مغادرًا، كان خافضًا رأسه كي لا يلفت الانتباه، وشكّ أبي خالد، خفّ ارتباكي لأن أبي لم يلحظ شيئًا، وجدتّه فجأة يلوح بيده ويصرخ بسالم.

- يا ولدي انتظر.

لف سالم فجأة وزاد خوفي.. نظرتي تواجه نظرة سالم المرتبكة، تقدّم ضامًّا شفتيه.

- تفضل يا عمي، هل ناديتني؟

- لقد سقطت منك حزمة الأوراق هذه.

لف سالم لتفقدها، وأخذها سريعًا، ابتسم مطمئنًا.

- شكرًا لك يا عمي، لم أعلم بسقوطها لعجلتي.

- لا عليك يا ولدي الشاعر، لعلمك لديك خيالٌ واسعٌ جِدًّا، وانتقاؤك للكلمات مثيرٌ للاهتمام، ومخارج الحروف واضحة نقية، أراك شيئًا عظيمًا في المستقبل إن استمررت على التدريب والمطالعة.

ابتسم سالم وضَمّ يده اليمين لصدره: أشكرك يا عم، كلامك يزيد من طموحي وشغفي في عالم الشعر، بإذن الله سأكون شيئًا حينما أكبر.

- هل تدرسُ الطب مع ابنتي؟

نظر لي سالم مبتسمًا: نعم يا عمي، أنا وابنتُكَ الكريمة ندرسُ الطب.

ابتسم أبي، واستأذن منه، وأمسك يدي ورحلنا: بارك الله فيك يا بنيّ.

خطوة.. اثنتان.. ثلاث.

سالم الذي ما زال واقفًا: عمي.

صددتُ قبل أبي، والقلق يكادُ يقتلني.. هززتُ رأسي رفضًا لما سيفعله.. صدّ أبي وتقدم خطوتين منه، وقال: نعم يا بُنَيّ، تفضل.

تقدم سالم بثقة من أبي خالد: أريدكَ بكلمة يا عمي، أود التقدم من ابنتك مهرة والزواج بها، وأنا جادٌّ بكلامي، وسأبلِغ أهلي بالأمر، لم أودّ تفويت لحظة لُقاك وقررتُ إخبارك بالأمر، أنا كاسبٌ لكريمتُك المصون يا عم، ما ردّك؟

تبدّلت ابتسامة أبي للجمود اللحظيّ.. صدمة لم تكن بالحسبان، شدَّ على يدي التي ما زالت تمسكه، تنحنح وقال: سنرد عليك في أقرب فرصة، وابنتي في الكلية وستخبرك بالردّ حالما أتوصل إليه.. سنذهبُ الآن!

ليس كل اعتراف محبوب، وليست كل صراحة تستحق القول، أحيانًا الصمتُ علاج اللحظة، ركبتُ السيارة، وعم الصمتُ الطريق بكامله.. وصلنا للمنزل ودخل أبي خالد المنزل لغرفته بعجلة.. لم ينطق بحرف واحد.. أدركتُ حينها أنني قد أخسر كلّ ما كسبته في لحظة ما في حياتي، ذهبتُ لداري والحزن يكادُ يقتلني، استلقيتُ على السرير، والأفكار تهاجمني.

استيقظتُ في اليوم التالي باكرًا.. أعددتُّ الإفطار، وانتظرتُ خروج أبي خالد، ولكن دون جدوى، لاحظ أحمد أمر اختفاء أبي، والربكة المسيطرة على أجواء المنزل، حاول الاستفسار، ولكن لا شيء يُقال.. لم يحضر للغداء، ولم يفتح لطرقاتِ كوب قهوته التي يحبها.. عجزتُ المحاولات، وحلَّ الليل، فُتِح باب غرفته بهدوء، لم يخرج منها، ذهبتُ سريعًا وطرقتُ الباب.. لا

أحد يرد! فتحتُ الباب ودخلت، غرفة مظلمة، كئيبة، يجلسُ أبي وفي يده سيجارٌ مشتعل، وعلى الطاولة عشرات السجائر المطفأة، تقدمتُ قربه بقلق: لم أرك تُدخن من قبل يا أبي.

- حينما أفكر فقط يا مهرة.

- أقسمُ بأنني لم أعلم بأمر الخطبة يا أبي، ورضاك عليّ أهم، إن لم تكن موافقًا، فلن أحزن.

أخذ نفسًا من الدخان وأردف: جئتِني طفلة صغيرة، وأقسمتُ بأن أربيكِ مع أبنائي، وأن أُحرم يدي أن تلمسكِ لمسة لا أبوية، وأن أصدّ كلّ نظرة لا إرادية، وأن أهاجم كل رغبة جسدية، وأفسِدُ كل فكرة شرعية معكِ، أقسمتُ بأنْ أزفَّكِ لزوجكِ بنفسي، ولن أكابر لمتعتي، وأُفقِدكِ متعتكِ يا مهرة.

فلتت منه دمعة واحدة.. أطفأ سيجارته وقال: قلتها سابقًا وسأعيدها، ستبقين ابنتي ما حييت، إن كان الشاب مرادكِ وسيصونكِ، فلا مانع لَدَيّ، وسأذهب للمحكمة، وأطلِّقكِ، وتقضين عدّتكِ، وأزفّكِ عليه عروسًا يا ابنتي.

سقطتْ قربه باكية.. قبلتُ رأسه بحرارة: أبي باعني بخسارة، وأنت اشتريتني بحنان، لم أتمنّ يومًا شيئًا قدر أمنيتي بأنْ أكون ابنتك ومن صلبك، لا أكثر، دمت لي ذخرًا يا أبي.

مرت الأيام، والأسابيعُ والأشهر، كنتُ أعيش فيها بلخبطةٍ شعورية مرهِقة، نامت فيَّ بعضُ الأحاسيس، ووُلدتْ فيَّ

الأخرى، طلب أبي خالد مقابلة سالم لوحده في المنزل، قدم سالم وأخبره أبي عن قصتي التي ما عادت سِرًّا يُخفى، وأنني الزوجةُ الآنسة خلال السنوات الفائتة، وعن ظلم أبي وزوجته، وبيعي، وخساراتي، واحتوائي.. شاهدتُ وجه سالم، لقد تبدَّل حالهُ كثيرًا حينما علم بأن من طلبني للزواج منه زوجي لا أبي، صمت لأسابيع وصدّ كثيرًا، وعاد إليّ يعتذرُ البُعد، وكلّه يطلبني من جديد، وعد أبي بأن الأمر سيكون سِرًّا أمام عائلته والعالم أجمع، وأنه على أتم الاستعداد للزواج مني.. وافق سالم، ووافق أبي.. سلمني أبي ورقة طلاقي، وجلستُ وحدي وفكري بعيدًا خلال العِدّة، كان أكثرُما يؤلمني أنني لن أستطيع احتضان أبي خالد من جديد، أو أن آخذ راحتي وقربي منه بعد زواجي من سالم، خفتُ أن يتغير كلّ شيء، وأن أصبح غريبة عليهم بعد تلك الأعوام الجميلة، حاولت خلود المكوث قربي قدر استطاعتها، حتى شارفت على الولادة، وانشغلت بطفلها الجديد..

كنتُ أقضي جُلّ وقتي في الجامعة مع سالم، والذي كان متشوّقًا لزواجنا كثيرًا، وحينما أعود للمنزل أجلس في غرفتي، وأحاول قدر استطاعتي التأقلم مع الجديد دون سؤال أو جواب.

انتهت العدّة على خير، وعادت الحياة تنبض في قلبي، حضرت عائلة سالم لخطبتي من أبي خالد، الذي كان سعيدًا جِدًّا بالأمر، وحُدِّد موعد الزفاف، بدأت أتبضعُ كثيرًا، وأحاول ملء

الحقائب؛ لأنني سأغادر لمنزل سالم الذي وهبه إيّاه والده.. كانت خلود حريصة على أن تكون قربي في تلك المرحلة، وأحيانًا يغلبها النعاس وتنام عندي..

كنتُ هائمة بعشق طفلها الجديد، ذلك الذي كان نسخة منها، وأسمته عذبي، شعرتُ بأنني أمه، وأنني أريد أن أنجب مثله لا أكثر..

قُبيل الزفاف بأيام نقل أحمد كل حقائبي لمنزل سالم، وكنتُ حزينة؛ لأن الدواليب باتت فارغة، والأدراج تشتاقُ دفاتري، والسرير أصبح بلا لحاف ووسادة، والستارُ سيُغلقُ للأبد، وستبدأُ الغرفة تفقدُ رائحتي، وأُصبحُ ذكرى تزور المكان كل فترة، وقبل الزفاف بليلة، اقترب مني أبي خالد وهو مبتسم الملامح.. صمت طويلاً دون حراك.. قابلته بالمثل وضحكت: أتمنى أن تطهو طعامًا جيّدًا لأحمد.

ضحك قليلاً وصمت ربكة فبكى، اقتربتُ منه وأمسكتُ يديه: أبي، لا تبكِ وإلاّ والله لن أبرح محلي.

أخذ نفسًا قويًّا، وقال بوجه محمرّ: حينما رحلت خلود لم أبكِ، لأنني آمنتُ بأنكِ ستسُدِّين محلها، ولكن غيابكِ عنّا لم أتوقعه، من سيجادلني في المطبخ، ويحضرلي كوب قهوتي، ويعتني بأحمد وبي؟

ابتسمتُ بنظرات الطمأنينة: أنا وخلود سنزورك بين فترة وأخرى، ولن يتغير عليك شيءٌ مطلقًا، وكلها فترة ويأتيك أحمد طالبًا الزواج، وسيبقى وزوجته وأبناؤه إن رزقه الله في المنزل معك.. نحنُ نسكنُكَ قبيل أن نسكن منزلك، لا تبكِ أرجوك.
ضحك باكيًا وقال: في أول لقاء لنا كنتِ تبكين، وفي هذا الوداع بكيتُ أنا، لا تنسَيْ دميتكِ هذه المرة، لكي لا يُجنّ جنون زوجكِ، ويأتيني فجرًا صارخًا.
ضحك كلانا وسط الدموع الحزينة.

يومُ الزفاف الموعود، ارتديتُ فستاني الأبيض الباهر، واكتسى عنقي بأغلى أطقم الماس، وقفتُ على قدمي التي أوشكت ألاّ تحملني خوفًا.. انتعلتُ الكعب العالي، وتشبثت بي يدُ خلود الغالية.. طابقت طرحتي الأرض من طولها الباهر، وانتشرت الأغاريدُ فرحًا.. خطواتٌ بطيئة، لأطرق بها بابًا جديدًا في حياتي، باب سالم، رجُل أحلامي العاشق، صُفِعت الطبول، وتطايرت الأغاني والكلمات..
تحدقُ بي الأعين المبهورة من كلّ جانب، ودموع عائلتي تقرقعُ الفراق في قلبي، أجلسُ بوسطِ رقصهن من حولي، بشتٌ أسودٌ يقتربُ مني، شعور لم أحظَ به من قبل.. ابتسامته ودهشته، بلحيته السوداء الكثيفة الناعمة، يقتربُ ويقبلُ رأسي، أبتسمُ

بخجل، دبلةٌ ماسيّةٌ فخمة تدخلُ أصبعي من يدين ترتجفان قلقًا وحماسًا، أضحكُ لرجفته تلك، يجلسُ بجانبي ويمسكُ يدي، أخبرني الحب بلمسةِ يد، والعشق بنظرة الدهشة، والأمان بستره عليّ، والحنان بتشبثه بي.

في أحد أشهر المنتجعات آنذاك، أجلسُ بصمتٍ وخجل، يقتربُ مني، يرفعُ طرحتي، يقدمُ أصبعه، ويرفع فكي لتُقابل عيناي عينيه.. يخبرني كم يحبني، وأخبره كم أنا محظوظة به، وأننا سطّرنا حكايتنا لتُخلّد في الأغاني والشاشات...

قصة معطف مفقود، لدبلة تتوسط كلا بنصَرَيْنا.

كان وحيدًا دون رفيق..

قرر شراء الماريونِتْ..

وعدها الحنان والسعادة وحسن المعشر..

لم يقوَ على رِقَّةِ الأهداب، فراقصها فورًا، وأشبع وحدته..

وملّها سريعًا، وألقى بها في صندوق الدُّمَى المهمل!

١٩٩٠

حينما كنتُ صغيرة، أمي كانت تغني لي أغنية لا معنى لها آنذاك، لحنُها أطربني، وترابُط الموقف فيها يلفتني، كانت تغني وتقول:

(يا حمامة نودي نودي، سلمي على مهاري، مهاري ذهبت لمكة، لتأتي بثوب العكة، لتضعه في الصندوقِ، والصندوق لا مفتاح

له، والمفتاح عند الحداد، والحداد يريد المال، والمال عند العروس، والعروس تريد الأبناء، والأبناء يريدون الحليب، والحليب عند البقرة، والبقرة تريد العشب، والعشب فوق الجبل، والجبلُ يريدُ المطر، والمطر من عند الله).

كبرتُ كثيرًا، وحينما غنيتها لأبنائي استوقفتني كلماتها، كانت معانيها حاضرةً دائمًا، إلاّ أن الطفولة كانت تجهلها، كلٌّ منَّا له ما يريده، وكلُّ مرادهم حتى يتحقق، وإن تحقق أردنا القادم، دون إدراك لما لدينا، ما لزومُ الصندوق بثوب عكة إن كنتُ تكبدّتُ عناء السفر ولن ألبسه؟ والصندوقُ الذي افترق مع المفتاح، فلا مجال لعودةِ اللقاء ما دام القلبُ كارهًا، والمفتاحُ النادم، ويريدُ العودة لعاشقه لولا أنه أسيرٌ في محل الحِدادة، والحدّادُ الجشعُ الذي يريدُ المال، والعروسُ التي كُتِبَ عليها الغنى عوضًا عن الأبناء الذين لو أنجبتهم لن تستطيع إرضاعهم لعدم توفر الحليب، والبقرةُ الجائعة التي تصحَّر عالمها، وأبدل لها الله العشب بالقمح الوفير، والعشبُ الذي نبَتَ على قمة جبلٍ ليُطعِم عنزة ضلّتِ الطريق، والغيمةُ الفرحة التي ما خانها غيمٌ، ولا مات لها نجمٌ، ولا تعرفُ للدمع طريقًا، وأن الله منتهى كل الطرق والأمور، وإن كل ما حدث لخيرةٍ ما، عاجلة كانت أم آجلة، ففراق عزيز خيرٌ، وولدٌ لمتعاطين خيرٌ.

مرت ثلاثة عشر عامًا من زواجي، أصبحتُ في عقدي الثالث

والنصف، لي زوجٌ كسرتُ وإيّاهُ كلّ معاني الكره وبرود العلاقة والفراق، يغضبُ نادرًا، فيضربني ويأتي الليل، فيبكي نادمًا ويحتضنني، يشربُ الأكواب أحيانًا ويسكرُوحينما يعودُ لرشده يرويني دلالاً وهيامًا.. حرمني ممارسة مهنتي وجعلني أميرة هذا البيت، يجدني بضيقي أبكي وهو بعمق سعادته، فتدمعُ عيناه، ويمسحُ دموعي، يعملُ لساعاتٍ طوالٍ، وعند عودته يرافقني ليسدّ فراغ انشغاله، يكتبُ غزلاً عن خطوط تجاعيدي، والشعيرات البيضاء، وتساقط شعري، وترهل جسدي، يهواني، فمن اليوم يُفارقُ من يُخطِئ، فما إن عاد لعقله إلّا واعتذر ندمًا؟

أصبحتُ أمًّا لأربعة، بكْرِيّ (سعود)، الذي حملتُ به بعد زواجي فورًا، وكان ميلادهُ الثالث عشر قبل أسبوعين، والثاني (بدر)، الذي يصغرُ البكر بعامين، وثالث فرحتي (جابر)، الذي يصغرُ بدرًا بأربعة أعوام، وبنتٌ واحدة، نسختي الصغيرة اللطيفة وهي (سارة)، تلك التي زادت فرحتي بحضورها منذ ثلاثة أعوام، كم هو غريب حقًّا معنى الأمومة! أن تبدأ الرحلةُ بالحب والمتعة، وإلى بداية تكوّن الجنين، وكبره اللحظيّ، جسدٌ آخر مني يشاركني جسدي، يكبرُ حجمه، فيتسعُ له الضيق، يركلُ وكأنه يطرقُ باب الحياة، يخرجُ فتبدأُ حكايةٌ جديدة، فهناك جسدٌ مني صغيرٌ جدًّا، لحمي ودمي وملامحي، وروحٌ أخرى تملكُ الجسد،

روح أتشبثُ بها بكل عروق قلبي كي لا تتوه مني، أخشى فقدانها، وأخشى فقداني لنفسي، فتضيعُ في الحياة بدوني، الأمومة هي أن نعيش لمن منحنا اللقب.

أحملُ (سارة) الباكية دلعًا بيدي، ألاعبها لتبتسم فتحييني، أنزلُ وأضعها قرب ألعابها في صالة المنزل، أذهب للمطبخ لتفقّد الغداء، ضجّةٌ عارمة تُصدِرُ متعتي، أخرج بابتسامتي.. عاد أولادي من المدرسة، يتقدّمون بشوقهم ليحتضنوني، ويقبّلوا رأسي..

يسألون عن الطعام، ويشرحون لي جوعهم المميت.. أصمتُ بابتسامة:

- جيبُك ممزق يا سعود!

سعود بربكة: لقد علِق اليوم بقفل باب الفصل، وانقطع يا أمي.

- وقفل الباب ترك لك جرحًا واحمرارًا على يدك؟

يخبئُ يده خلف ظهره: حينما علق الجيب سقطتُ أرضًا وجُرِحْت!

أبتسمُ مجدّدًا: آثارُ الحبر ما زالت على كفّ يدك يا بدر.

أقفل يده ورد متلعثمًا: لقد كُسِر القلم، وساح الحبر على يدي.

- وهل كتب لك الحبر تلك الكلمات التي تريدُ مسحها، ألم أنهَكَ عن الغش يا ولد؟

يقتربُ مني جابر واضعًا يده على أنفه ليغطيه: أنا حققت المركز الأول اليوم في اختبار الحساب.

- ولماذا تغطي أنفك الصغير؟

ردّ بتشتُّت: هناك عطسة أودُّ حبسها.

ضحكتُ بكتمان: ممتاز، شككتُ للحظة أنك تُخفي أنفك؛ كي لا يطول من شدة الكذب، مثل القصة التي قصصتها لك.

ردَّ بصدمة: لا يا أمي، أنا لا أكذبُ عليكِ، وأخفي أمر أنني راسب، وأخفي أنفي بسبب العطسة، لا بسبب أن تكتشفي كذبتي.

ضحكتُ مجدّدًا: حسناً يا أولاد، أبوكم على وصول، بدّلوا ملابسكم، وصلّوا الظهر، وانزلوا للغداء.

يصعدُ الثلاثة لغرفهم، أتقدم لأحمل سارة، وإذْ بأبيها قد وصل.. ينزل من سيارته ويدخلُ المنزل.. يراني، فيبتسمُ ابتسامته المعتادة، يتقدَّم مني، يقبّلُ خدي قبلةً معتادة، ويأخذ سارة ويرفعها للأعلى، تضحكُ هي سعادة وفرحًا بسببه، يدلِّلها ويُخرِجُ حلاوة ويقدمها لها.

- إنه وقتُ غدائها يا سالم، إن رأت الحلاوة لن تأكل معنا.

يردُّ ببروده وفرحته: دعيها تأكلِ الحلاوة؛ كي تزيد حلاوتها وأموت حبًّا لعدم مقاومتي لجمالها هذا.

أبتسمُ: وأين حلاوتي؟

يبحثُ خلفه: لقد جلبتُ لكِ علبة فراولة، ولكنني نسيتها في

السيارة، سنذهبُ وسارة لنجلبها لكِ يا فاكهتي.
أضحكُ خجلاً.. يخرجُ وسارة لجلب الفراولة.
على مائدة الطعام نجلس.. بسعادة الكلمات، وجمال اللقاء والتجمع، جميلٌ أن تجمعنا طاولة وملاعق وصحون، أن نبتعد عن كل العالم في أوساط المنزل..
هاتفُ المنزل يرن..
يقوم سعود وبدر بعجلة وشجار كي يجيبا الهاتف.. يردُ سعود كاسب العراك على المتصل، يُبعد السماعة عن أذنه ويطلبني لمهاتفة المتصل، أستغربُ موعد الاتصال، أقوم بعدم ارتياحي وقلقي..
- أهلاً، من معي؟
خلود وهي منهارةٌ تبكي: أبي يريدُ رؤيتكِ يا مهرة، استعجلي، فهو يلفظُ آخر أنفاسه.
كانت جملةٌ واحدة، صبت عظامي، وقلبت فكري رأسًا على عقب.. رميتُ السماعة وجريتُ لغرفتي؛ كي أرتدي ملابسي... لحق بي سالم، وأغلق الباب.
- من المتصل يا حبيبتي؟
رددتُ برجفة: إنها خلود يا سالم، أبي خالد يلفظُ آخر أنفاسه، ويريدُ رؤيتي.
جلس وأغلق كف يده، وأغمض لمهلة: ولماذا يريدُ رؤيتكِ؟

قلتُ بدمع أوشك على السقوط: أقول لك إنه يموت، وقد يكون لقائي الأخير به.. ربي حبيبي، أسألك اللطف، والعافية لحاله.

ارتديتُ عباءتي، وعند الباب عارض سالم خروجي، وقال: تتركينني، وتذهبين لرؤية طليقكِ؟!

رددتُّ بغضب وحِدّة: حرمتني من رؤيته منذ أن تزوجتك، ولم أمانع، فقد عذرتُ غيرتك الغبية تلك، قطعتُ وصله، وأنت تعلمُ أنه أغلى مَنْ في دنيايَ، وأنه أبي، وأني ابنته.. ابتعد عن طريقي يا سالم، فلا مجال للنقاش الآن!

أمسك يدي، وقال: لن تذهبي إليه يا مهرة، فهو كاذبٌ يفتعلُ أيَّ شيءٍ ليراكِ!

سحبتُ يدي بقوة: والله إن لم تسمح لي بالخروج، فإني سأخرجُ رغمًا عنك، ولن تراني ما حييت.

صُدِم من ردّي، أبعدتُّ يده عن قبضة الباب، وخرجتُ بعجلة.

دخلتُ المنزل بخوف وعجلة.. قلبي يخفقُ بشكل غريب.. شعور قاتمٌ يحتويني، جريتُ للغرفة، وقفتُ لوهلة..

شقيقتا أبي خالد، وخلود وزوجها، وأحمد وزوجته كلهم في الغرفة، وبكاؤهم يحرقُ الفؤاد.. اقتربتُ بصدمتي.. ربي حبيبي لا تريني فيه مكروهًا يُبكيني..

دخلتُ الغرفة،.. مُسِنٌّ قتله المرض وبشّعه، مستلقٍ على الفراش ،ويلتقطُ أنفاسه بثقل مُرْبِك، بالكاد يستطيع النظر،

اقتربتُ منه، سقطتُّ قربه، وأمسكتُ يده اليسرى بكلتا يديّ، بكيتُ وانهرتُ على حاله هذا.. يحاولُ النظر إليّ.. يحاول أن يُشبِعَ ما تبقى من حياته مني.

- لا ترحل يا أبي أرجوك، لا ترحل وتتركني بعد أن ساندتني كل تلك السنوات، لم تصنع طبق الغداء الفائز بعد، لم تنشر روايتك حتى الآن، كيف تيتّم مكتبتك، وأبطالك وأكواب القهوة؟! كيف تيتِّمُني وتتركني وحدي، أرجوك لا تذهب.

يحاول الحديث دون جدوى.. يبتسمُ ودمعة تفلتُ من عينيه، يرمقُ كلّ من حوله بألم الوداع، يرفعُ سبابته اليمنى للرحمن، يرحلُ عنّا خالد، الذي سيبقى خالدًا في قلوبنا ما حيينا، انهرتُ بكاءً يومها، فلم أردّ له جميلَه معي بعد، وربما لن أستطيع ردَّه حتى.

وسط الانهيار..

وقفتُ بصدمتي من ألم الفراق.. ذهبتُ لمكتبه، وقفتُ هناك وسط الظلام، شممتُ ما تبقَّى من رائحته، تحسّستُ أغلفته.. تقدّمتُ لمكتبه الأملس الذي سيسكنه الغبار من اليوم فصاعدًا.. لا يجبُ أن يرحل عنّا، فلم يكمل مشوار بصمته بعد، جلستُ على كرسيه، تشبثتُ بأطرافه، وضعتُ يدي اليمنى مكان موضع يده الدائم، فتحتُ الدرج الأول.. ثمَّةُ أوراق كثيرة، كثيرة جِدًّا كُتِبَ عليها عنوان (بصمة الخلود للأبد)، احتضنتهم، فكلّه

بالتأكيد يمكثُ في أسطرها.

بكيتُ كثيرًا هنا.. وضعتُ الأوراق فوق الطاولة، صندوق صغير لم يتزحزح من مكانه منذ دخولي للمنزل، أمسكتُ قبضته وفتحته، لأجد خلودًا، وأحمد، وأنا.. صورًا ما كانت تفارقه يومًا، والآن هو من فارقنا جميعًا، دون عودة.

مرت ثلاثةُ أشهر وأنا على حالي الكئيب..

بكاء لا يتوقف.. حياة لا تهوى الاستمرار، ما زلتُ أعيشُ صدمتي ولم أتخطَّها، كان في عز شبابه، واعتنى بي، وأخلص لوعوده التي أقسمها لي.. هلكتُ من بعده.. سقطت كل أضلعي عزاءً لصلابته.. أتذكرُ دمعاته حينما زفّني لسالم، وأنوح ألمًا.. ترعرعت وسط أحضانه الحنونة لأعوام طويلة، والآن تحتضنه الأتربة، فقدتُّ نفسي من بعده، فمن يحييني الآن؟

بعد شهرين من وفاته، بدأت حالتي الصحية تتدهور شيئًا فشيئًا، حُمّى تزورني باستمرار، وفقدتُّ الكثير من وزني، أصبحتُ هيكلاً ملحوظًا.. سوادٌ داكن يسكنُ أسفل عينيّ، صمدتُّ وكتمتُ الألم قدر استطاعتي، إلاّ أن الألم في ازدياد مريب هذا الأسبوع.. وهذا اليوم بالتحديد، وقفتُ والدوار يكادُ يُسقطني، نزلتُ للأسفل على مهلي، رؤيةٌ مضبَّبة تعميني، ألمٌ في الحوض يكادُ يقتلني، أجلسُ قرب الهاتف وحالي لا يَسُرّ، حملتُ السماعة، واسترسلتُ بالضغط على أرقام سالم..

- كيف حالكِ يا حبيبتي.
- الحقني يا سالم، أنا مُتعبةٌ جِدًّا.

لم أسمع باقي المكالمة، أغفو بهلاكٍ، وتستيقظُ عيناي لثوانٍ متباعدة وترجعُ للنوم، رأيتُ الباب يُفتحُ.. شخصٌ يقتربُ مني ويصرخُ باسمي، يحملني بحضنه، ويخرج.

في ممرات المستشفى، أجلسُ على كرسيٍّ متحرّكٍ، والعالم من حولي يدور، يستعجل سالم بدفعي للطبيب، يُدخلني للغرفة، أستلقي على السرير، تقتربُ مني طبيبة شابة، تسألني إلاّ أني لا أقوى على الحراك والتحدث.. توجّه السؤال لسالم القلق..

تضعُ الطبيبة سماعتها، وتسترق الإنصات لنبضاتي: ماذا بها؟ ما الذي تشتكي منه؟

ردَّ عليها بربكة: لا أعلم، لقد اتصلت بي وهي مرهقة وأحضرتها فورًا.

الطبيبة وهي تفحص حرارتي، ولساني: وجهها شديدُ الاصفرار، والهلاك واضحٌ عليها، منذ متى وهي على هذا الحال؟

سالم رافعًا شعيرات رأسه للأعلى: منذُ ثلاثة أشهر تقريبًا، أُجبِرُها على الطعام والشراب، لقد فقدتْ عزيزًا عليها، ومنذ ذلك الحين وحالتها تسوء كثيرًا.. لا تشتهي شيئًا ولا تتحدث.. حاولتُ إحضارها إلاّ أنها ترفضُ المجيء، أخبرتني بأن هناك ألمًا في حوضها.. و.. دكتورة، لاحظتُ دماء عدة مراتٍ في ملابسها

وعلى السرير طيلة الأسبوعين الفائتين، اعتقدتُّ أن دورتها الشهرية في لخبطة لما تمر به من ظروف نفسية، ولكنْ ربما هناك خطبٌ بها.

ردّت الطبيبة: غالبًا تدهورت حالتها اليوم؛ بسبب نقص التغذية والإجهاد النفسي، ولكن الدماء مربكة، سوف نجري لها التحاليل اللَّازمة، وستبيت معنا عدة أيام حتى نطمئن عليها.

في غرفة المشفى، أستيقظُ وأغفو، بتُّ على هذا الموال قدرًا ضخمًا من الساعات، وكأنني لم أذق النوم دهرًا.. استيقظتُ أخيرًا بهلاكٍ شديد.. بياض في بياض، أصدُّ يمينًا وأجده يقرأُ كتابًا، لاحظ استيقاظي، وتقدّم نحوي، أمسك يدي، وتحمَّد لي بالسلامة..

- أين أبنائي يا سالم؟

- لا تقلقي، تركتهم في منزل أمي وهي ترعاهم.

- ماذا قالت الطبيبة؟

- منذُ ساعتين كانت هنا، وقالت إن التحاليل ستخرجُ قريبًا، لا تقلقي، ستعودين كما كنتِ يا حبيبتي.

تقدّم وقبل رأسي، ابتسمتُ بإرهاق.. يُطرَقُ الباب، وتدخلُ طبيبة أراها لأول مرة.

- استيقظتِ يا مهرة، زوجكِ كان قلقًا جدًّا عليكِ.

ابتسمتُ لها.

ردّت قائلة: كنتِ مُرهقة جدًّا، ونمتِ لمدة تقاربُ اليومين هنا، وجب عليكِ الالتزام بالطعام والخروج من الحزن الذي يحيطك، من منا لا أحزان في حياته؟ وجب علينا المُضيّ دائمًا وترك الأحزان، يجبُ أن تكون صحتُكِ أهمّ ما تملكين؛ لكي تنعمي بحياة صحية يا مهرة.

- حاضر يا دكتورة، سوف أحاول قدر المستطاع أن أعود لسابقي.

- بإذن الله.

توجهت بالحديث مع زوجي: أخ سالم، لقد سقطت محفظتُك في مكتبي، الحقني لأسلمك إيَّاها، سلامتُكِ يا مهرة.

خرجت من الغرفة بعجلة من أمرها، ربت سالم علي كتفي ولحِق بها، أغمضتُّ عيني، وفكرتُ بكلّ ما فاتني طيلة تلك الأشهر الكئيبة، كيف مَرّت تلك الأيام دون أن أعيشها؟ كيف حُسبتْ من حياتي أيامٌ لم أبتسم بها؟ كيف نسيتُ أولادي وناموا دون أن أطمئن عليهم؟

في مكتب الطبيبة..

دخل سالم بعد طرقه للباب: مرحبًا دكتورة.

أشارت له بالجلوس: مرحبتين سالم، تفضل.

تقدم بضع خطوات، وأخرج محفظته من جيبه: محفظتي معي.

الدكتورة بملامح الجد: أعلم.. كنتُ أريد الحديث معك على

انفراد، دون أن تسمعني زوجتك مهرة.

جلس سالم بارتباك: هل هناك خطبٌ ما بالأشعة التي قمتم بها؟

نظرت إليه الطبيبة: هل لديكم أطفالٌ يا سالم؟

رد بقلق: الحمدُ لله لدينا أربعة، ثلاثة أولاد وبنت.

قالت بطمأنينة: للأسف يا سالم، بعد فحص الدم، وموافقتُكَ لإجراء فحص جهاز الموجات فوق الصوتية، وبعد أخذنا لخزعة من نسيج بطانة الرحم، ووفقًا لكل الأعراض التي تمر بها زوجتك، اكتشفنا إصابتها بسرطان في الرحم، لقد تبين لنا أنها في مرحلتها الثانية، ووجب التدخل السريع؛ كي لا ينتشر الورم في العقد الليمفاوية القريبة من الرحم، الورم في بادئ انتشاره خارج عنق الرحم، ووصل إلى جدار الحوض، وهذا مؤشرٌ جيّدٌ لاكتشافنا أمره قبل أن ينتشر أكثر في جسدها.

اتسعت عينا سالم صدمة.. صدمة لم تكن في الحسبان، اتضحت عروق العينين المحمرة.. دموع اغرورقت كتمةً.. رجفة احتلت يديه.. رجلان مرتبكتان، صمت لثوانٍ طويلة، وقال: ولكنها تُريدُ أن تنجب خالدًا، فهو سبيل عودة الحياة لروحها من جديد.

صمتٌ حزين يتملكُ الطبيبة: للأسف لقد تضررت مهرة كثيرًا.. هناك خياران، إمّا أن نستأصل الورم فقط، وإما أن نستأصل

الرحم بكامله! أغلب الحالات المشابهة لحالة زوجتك وعمرها يتجهون لاستئصال الرحم بكامله، وهذا الخيار الأفضل من وجهة نظري أنا أيضًا، ولكنها لن تستطيع الإنجاب من جديد، ولن تُصبحَ أبًا لجديد.

عضّ شفتيه ألمًا، وسقطت دمعة من عينه اليمنى، زادت رجفته، شَدّ على يده وأقفلها: الحمدُ لله على كل حال، سأكون أباها وهي طفلتي ما حييت.

أجابت الطبيبة: أعانكم الله وأدامك وأطفالكما لها.

انهار باكيًا أمامها: ولكن كيف أخبرها؟

قدمت له علبة المناديل: أنت مؤمن بقدرالله يا سالم، وكل شيء يحدثُ لحكمة وقدر، وكِّل أمرك لله وحده، واشكره على نعمة ما رزقك.. أنت أعلمُ منا بطريقة إخبارها، كنْ قويًّا أمامها، لا تكسرها بدموعك فوق كسرها.

مسح وجهه بيديه، وقف وقال: الحمدُ لله على كلِّ حال، سأذهبُ لإخبارها.

تأخر سالم نصف ساعة، بقيتُ لوحدي كثيرًا دون نوم، والأفكارتحاصرني من كل الزوايا..

طرق الباب، ودخل ويده اليمنى خلف ظهره، ابتسمتُ وأنا أعلمُ أنه يخبئُ لي مفاجأة خلف ظهره.. تقدّم مبتسمًا... ضحكتُ بفرح:

- فعلت لي ذات الحركة في الجامعة بعدما خطبتني.
ابتسم وقال: تذكرين الحدث للآن؟
رددتُّ بحبّ: ولن أنساهُ إطلاقًا.
تقدم قربي، ومدّ يده بخمسةُ ورود حمر: أنا واحد، وسعود وبدروجابر ثلاثة، أًصبحنا أربعة الآن، وسارة الخامسة والأخيرة يا فؤادي.
رددتُّ بابتسامة: أنت أول وردة ودمُكَ يسري في باقي الورود، بعد عام ستُضيفُ الوردة السادسة، إنْ كان ولدًا فخالدًا، وإن جاءت بنتًا، فسأسمّيها خلود.
ارتبك وتبدّل حاله: خالدٌ واحد ويعيشُ في قلبكِ يا مهرة، كلنا لكِ خالدين، حتى وإن لم يأتِ لعائلتنا جديد.
ارتبكتُ وقلقت غير مدركة.
استرسل بعدما أمسك يدي، وأقفل عليها بكلتا يديه: لقد خرجت فحوصاتكِ يا مهرة...
وبعد شرحٍ طويل، ومواساة شديدة، بكيتُ بشدة، بل فقدتُ جزءًا من جسدي.

مرت أيامُ العلاج والجراحة.. حزنٌ وألمٌ شديدان.. اشتقتُ لأولادي كثيرًا، فراقهم أرهقني.. كان سالم رفيق الروح، وأصبح مسكِّنَ ألمي، مُقبِّلَ خدِّي ورأسي، قاصًّا لروايات ما قبل النوم

لمسمعي.. كان ملعقةَ غذائي، وسند ضعفي وحركتي، ومنديل دمعي، ومالئ فراغ أصابعي بأصابعه، وحضنه سرير جسدي، كنتُ رضيعته خلال فترة العلاج الصعبة.. كان مثل الشاب الذي تعرفتُ عليه في ممرّات الكلية.. الشاعر المهذّب اللَّبِق.. فارس أحلامي الوسيم، وكنتُ فتاة أحلام صفحاته، وخطّ حبرِ كلماته، وأفكاره، وعروق قلبه كما يصفني، استرجعتُ كل أيامي الجميلة معه، وذبتُ في عشقه من جديد، مثل الفتاة الجامعية ذات الشعر الطويل الداكن الحرير، يأخذني أمرًا للتمشي، ولتحريك دورتي الدموية، يُعرِّفُ جميع سكان المشفى بي، وبأنني فتاته الرقيقة، استجمعتُ قواي بحنانه ورقته، وعادت تجري الحياةُ في شراييني من جديد، حوّل مرارة الأيام المريضة تلك لحياة أخرى خيالية بذكرياتها، إلى أن شُفيتُ تمامًا من خبثِ ما سكن رحمي.. قرعُ باب أنتظره منذ أن بتُّ ليلتي الأولى هنا.

تدخل الطبيبة بابتسامة: حمدًا لله يا مهرة، تستطيعين الخروج، سنودّع أجمل من زارنا، وصنع لنا حلُمًا رقيقًا.

ابتسمتُ يومها، وفرحتُ بشدة؛ كوني سأعود لسابقِ عهدي، في منزل وسط زوجي وأبنائي.

جُمِعت ملابسي، ورُصَّتْ في الحقيبة البُنِّيَّة.. حملها سالم وأمسك يدي بمهلٍ، وأخذتُ ألحقُ ضحكاته، وداعًا لممرّاتِ هذا القسم، وداعًا لطاقمه من أطباء وممرضين، وداعًا لأجمل

الذكريات التي احتوتني بكامل يأسي، وأسهمت في إعادتي من جديد.

أركبُ السيارة، يرحبُ بي سالم فرحًا وشوقًا، يرتدي نظارته السوداء، ويتحرك للطريق، يرفعُ صوت الأغنية وهو يقول:

- أتذكرين أول شريط أهديته لكِ؟

ضحكتُ وأنا أهزّرأسي فرحًا: وهل يُنسى صوتُ عبد الحليم؟

صمتٌ وترقب لبدء غنائه العذب..

كانت كلماتها تقول:

(لو حكينا يا حبيبي.. نبتدي منين الحكاية؟ دحنا قصة حبنا ليها أكتر من بداية.)

يمد يده ويحتضنني بشوق، يصدُّ ليملأ قلبه فيّ، وأصدُّ له لأشبع ناظري منه، لم نصمد ثواني معدودة، حتى شاحت السيارة، وانقلبنا عدة قلبات..

صوتٌ وأنين مؤلم..

أفتحُ عينيّ بصعوبة، لا أستطيعُ الحراك إطلاقًا، رائحة البنزين تملأُ المكان، تبدو أضلعي مكسورة، أسقطُ على جانبي الأيمن في السيارة وجسدي يلامس الأرض، السيارة مقلوبة على ما يبدو، قطرات حمراء تتساقطُ على وجهي، أرفع رأسي عاليًا، إنها دماء سالم، وقطعةُ زجاج حادّة كبيرة تتوسطُ جسده، لقد فارق الحياة، وفارقت الحياة روحي منذ ذلك الحين.

ترعرعت الدمية بكامل إخلاصها وسطه..
كانت تمشي طوعًا لرغباته..
راقصة.. زوجة.. رفيقةُ.. وعشيقة..
إلى أن سمعته يومًا وهو ينوي شراء دمية جديدة بعد أن تقادمها..
فتمنّتْ حينها أن تكون قاتلته!
٢٠٢٠
بعد مرور ثلاثين عامًا.
عصافيرُ تحطُ على نافذتي، تزقزقُ بكل حرية، غصنُ الشجرة كثيفُ الورق يحتكُّ بالنافذة، ويُصدر صوت الخشخشة من شدة كثافة ورقه، الأشعة تداعبُ ستار النافذة الرقيق، وتخترقها لتنهال على السرير محتضنةً برودة قدميّ، أفتحُ عينيّ من نوم مُشبع، أعضّ على فمي المُجعد، أرفع ظهري من السرير بمهل شديد، وأنا أسمع قرقعة العظام التي باتت تتهالك كِبَرًا، أسندُ ظهري بالسرير، صوت قطط تتشاجر بالأسفل، أضحكُ لبلاهتها، أهذِّبُ شعيرات رأسي التي شابت، وقصُرت وتساقط معظمها، أصدُّ يمينًا.. كوبُ ماء مليء.. أمدّ يدي وآخذه، وأتناوله على ثلاث رشفاتٍ صِغار.. آخذُ ساعتي من على الطاولة.. تُشيرُ للسابعة صباحًا، نمتُ كثيرًا هذا اليوم، أعيد الساعة لمكانها، أرفعُ غطاء السرير عن جسدي، أُنزِلُ قدميّ القصيرين، وظهري

الذي احدوْدَبَ يوازنُ عدم سقوطي، أدخِلُ خفيّ بنعليّ، وأقفُ على مهلي، أمشي بخطواتي البطيئة، وأدخل الحمام.. أتقدمُ للمغسلة، أضع يدي عليها.. أرمُقُ وجهي في المرآة المعلقة، خدايَ النائمان.. خطوط وتجاعيدٌ كثيرة تغطيني، فمٌ مشقوقٌ باهتٌ، جسدٌ سَمِنَ كثيرًا بعد الضعف الشبابيّ، ولكنني أحبّني كما أنا، أبتسمُ للمرآة كعادتي اليومية، أخلعُ ملابسي لأستحم، تحت قطرات الماء الدافئة العذبة.

أرتدي الأبيض.. أفتحُ باب غرفتي.. أمشي على مهل؛ كي لا أوقظ أبنائي وزوجاتهم وأحفادي.. أنزل الدرج.. درجة تليها أخرى.. مشوارٌ اعتادته قدماي، لا أحد مستيقظٌ بعد، حتى الخادمة ما زالت نائمة، أفتحُ باب المنزل، تتزاحم الأشعة والنسمات للدخول، أبتسمُ مرحبةً بها في منزلي الضخم هذا، أتقدمُ قرب نبتاتي الصغيرة، نبتاتٌ تبيتُ في أحواضٍ متفرقة، أحمل سقّاية الماء وأرشُّ مقدار عطشهم لترتوي الأغصان الصغيرة، أقف وأرمقُ السماء الصافية، عصافيرُكثرٌوحمامٌ، منظرٌلا نراه إلاّ في أبياتِ الشعر الشامية، أدخُلُ للمنزل، أقتربُ من قفص الببغاء المزعج، أصبّحُ عليه.. ذلك الشقيُّ الذي أسمته حفيدتي (زنّان)، أرفعُ عن قفصه قطعة القماش، يتراقصُ فرحًا حينما يراني، يصرخُ بـ(صباح الخير) ليملأ المنزل خيرًا، أبتسم وأنا أداعبُ منقاره الأسود، وأحك رقبته ورأسه.. أتجه للمطبخ، وجب عليّ

تحضيرُ الإفطار للأولاد قبل أن يستيقظوا، بيضٌ مقليٌّ لبكري سعود، وبيض العيون لبدر، وشطيرة الجبن والطماطم لجابر، والأجبان والخضرة لسارة، تتطاير الروائح للأعلى، لتوقظ نعاسهم الثقيل ونسائهم وأطفالهم الأبرياء، يجهزُ الطعام، أصفُّه على الطاولة، أرتّبُ المقاعد، وأضعُ الصحون والملاعق، الجبن والعسل والمربى، أكوابٌ مُلِئت بعصير البرتقال الطازج البارد، أجلس في مقدمة الطاولة..

- يا أولاد جهز الإفطار بارك الله فيكم، هيَّا انزلوا لتناوله قبل أن يبرُد.

صمتٌ لحظي.. أبوابٌ تُفتح.. أقدامٌ تتحرك..

سلام وصباحٌ وزوبعة أحفادي وهم ينزلون من السلالم، يتقدمون واحداً تلو الآخر، بحماس وسعادة، يقبلون رأسي، ويصبّحون ويهللون، أبنائي الذين غافلوني وكبروا وتزوجوا وأنجبوا.. أبتسمُ لهم بكل سعادة، الراحة تملأُ قلبي، يجلسون وتمتلئ طاولة الطعام حديثًا وضحكًا، يتشاجرون كعادتهم من يضع أول لقمة في فمي، ومن يقع عليه اختياري في أن يسكب لي القهوة، أو الشاي، أو العصير، تُشبعني رؤيتهم يأكلون، وترويني ضحكاتهم من حولي.. آخذُ قطعة من الخبزوأغمسها في العسل، أرفعها وأنا أردد:

- من سيأكلُ هذه اللقمة من يدي؟

فجأة، لا مُجيب لكلماتي! والبيتُ الضخم أصبح منزلي الذي تهالك وقدُم، وكل ما حولي داكنٌ لا يُراد، والطاولة الممتلئة تحولت لصحنٍ فيه خبزتان ناشفتان، وقطع من الجبن المغلف، فهذا ما تحويه ثلاجة المنزل، وهذا الشيء الصالح الوحيد في منزلي، وأبنائي، وزوجاتهم، وأحفادي.. لم يزوروني منذ سنواتٍ طِوال! منذُ ذلك العراك الذي داربيننا، كانوا يريدون بيع منزلي.. منزل سالم، أبوهم الحبيب، ليسددوا ديونهم الدنيوية، ونسوا ديْنَ والدهم ودَيْني.. أعيشُ وحيدة، لا أعلمُ إذا أنجبوا لي أحفادًا جددَ أم لا، لا يعلمون أكنتُ على قيد الحياة، أو فارقتها، وجثتي قد تحللت على السرير، أخلصتُ لهم، فلماذا حينما كبروا نسوني؟ لديّ صورة واحدة لسالم، الذي تركني وحدي ورحل من دوني، صورة واحدة أعاتبها، وأضحكُ معها، وأحن لها، وأنامُ قربها، ودميةٌ عتيقة، كلما شاهدتها أبتسمُ لطفولتي، كبرتُ كثيرًا، لم أتوقع الكِبرلعنة أبدًا، توقعتني سأكون كما أنا، والعالم ورديٌّ مشرقٌ من حولي، إلاّ أن كل شيء أصبح داكنًا، كل شيء.

أكذبُ إن قلتُ إنني لا أشتاقُ لهم، أكذبُ إن كنتُ لا أريد أي اعتذار منهم فقط كي أضمهم لصدري من جديد، أكذبُ إن بانت عليّ ملامح العداء، فأنا أم، وأجزاءٌ مني هجروني، ولا

يريدون لقائي، لم أعد أحتمل حال الوحدة هذا.. لم أعد قادرة على النوم فقط؛ لأنني ربما وفي أية لحظة أستيقظُ، وأكتشفُ أن هجرانهم لي كان حلمًا لا أكثر.. أكذبُ إن قلتُ إنني لا أغار من أية أم أولادها حولها، أريدهم جميعًا حولي، أريدهم أن يعودوا أطفالاً يتربعون حضني، أن أنام وأستيقظ وأجدهم كلهم ينامون في سريري، أن أطعمهم وألبسهم وأسعدهم مثل السابق.. يجب أن يعودوا لي، اشتقتُ لملامح وجوههم، ملامحُ إن رتبتها ظهر لي سالم من جديد، فهو في عينَيْ سعود، وأنف بدر، وجسد وفكر وصوت ولحية جابر، وابتسامة سارة، إن اجتمعوا سيشكلونه وسطنا من جديد..

وقفتُ على نية الذهاب لهم لا أكثر، ربما يودّون وصالي، ولكنهم خائفون، ربما نسيتُ أن أعلمهم كيفية الاعتذار، الحق عليّ، أنا من نسيت؛ لأني أعلم أنهم لا يستطيعون فراقي لحظة واحدة.

ارتديتُ ملابسي وخرجتُ من المنزل، طرقتُ باب الجيران، رحبت بي جارتي واستأذنتها أن آخذ السائق لأقضي المشوار، سمحت لي برحابة صدر وابتسامة، وقالت إنه تحت خدمتي اليوم بكامله، ركبتُ سيارة السائق وكانت وجهتي الأولى لسوق الذهب.

ركن السائق السيارة ونزلتُ منها بعجلة، دخلتُ المحل،

وتقدمتُ قرب البائع الذي كان من جنسية عربية، رحَّبَ بي بحرارة، أخبرته بأنني أودّ بيع كل الذهب هذا، وضعتُ حقيبتي على الطاولة، وأخرجت كل ما ملكته من زينة، كل قطعة باتت بين أصابعي ويدي وعنقي وأذني، زينة زفافي وذكريات سالم معي كلها تتوسط هذه القطع الذهبية، إلاّ أنها الطريقة الوحيدة لعودة أبنائي لي، فلن أبخل بها، جلب البائع سلة سوداء مسطحة، ووضع بها كل قطعي الذهبية، قاس ووزن كل قطعة على حدة، تقدم مني بالآلة الحاسبة وظهر بها مبلغ كل ما أملكه من ثروة، أخبرته بموافقتي وسلمني المبلغ وخرجت، ركبتُ السيارة، وأمرت السائق بأن يتحرك لمنزل نعتّه له بدقة، وخلال الطريق أخرجتُ من حقيبتي الأظرف، وأخذتُ أقسّمُ فيها المبلغ بالتساوي لهم جميعهم، وصلتُ للمنزل، نزلتُ وأمرتُ السائق بانتظاري، فيلّا ضخمة شرحة من طابقين، بحديقة بسيطة خيالية، تقدمتُ بربكة من الباب، صعدتُ الأدراج الخمسة، طرقتُ الباب عدة مرات، ضجة أطفال في الداخل، وجدتُ زر الجرس، ضغطتُ عليه مرتين، فتحت الخادمة الباب..

- هل سعود موجود؟

ردت عليّ بالإنجليزية التي لم أفقه منها شيئًا، تكدّست من حولها رؤوسٌ صغيرة يملأُ أعينهم الفضول، ابتسمتُ لهم، من منكم أبناءُ سعود؟

ردت عليّ أكبرُ البنات التي قارب سنّها الثمانية أعوام..

- أنا ابنته البكر، تفضلي.

- أردتُ محادثته يا ابنتي، هل هو موجود؟

- لا، لقد خرج أبي وأمي ولا أعلم متى سيعودان.

ابتسمتُ لها، هل يمكنني الدخول وانتظارهما؟

ردت: تفضلي للداخل، لا أحد غيرنا هنا.

دخلتُ المنزل، أشارت لي حفيدتي بالجلوس على هذا الكرسي الفخم، جلستُ وكلي مبحرٌ في الصغار، ربما يكونون كلهم أحفادي، كانوا سبعة أطفال، خمس بنات وولدان.

قدمت لي الخادمة كوبًا من العصير، وجلس الأطفال مقابل كرسيّ وكلهم خجل..

بادرتُ سائلة: كلكم أبناء سعود؟

ردت بابتسامة: لا أنا ابنته خولة، وفاطمة شقيقتي وأيضًا لطيفة.

ابتسمتُ لهنّ..

أكملت قائلة: وهذا سعد وأخوه محمد، وميرة وسميرة أبناء عمي بدر.

أصابني شعورٌ لا يوصف، كبُر أحفادي كثيرًا، ومنهم وجوهٌ جديدة لم أرَهُم من قبل قط.

وجهتُ لها سؤالاً آخر: وأين عمكِ بدر؟

- لا أعلمُ حقيقة، فهو كل يوم يأتي بأبنائه؛ كي يلعبوا معنا، ويعود لأخذهم في المساء.

تحدث أحد الأطفال ببراءة: ومن أنتِ؟

ابتسمتُ وقلت: أنا جدتكم.. مهرة.

اتسعت عينا الأطفال صدمة حينها، توزّعت الابتسامات والخجل، كثُرَ السؤال بيني وبينهم، وكأنهم لم يشاهدوا جدةً من قبل، سرعان ما اكتسبتُ قلوبهم، وسرعان ما سرقتُ منهم حضنًا يعيدُ بي الحياة ولو قليلاً..

قال محمد بن بدر: كنتُ أسأل أبي دائمًا عن جديّ، ولكنه لم يجاوبني قط.

ابتسمتُ حزنًا: وها أنا جئتُ، وأخبرتُكَ وعرفتُكَ بنفسي الآن.

قالت بكر سعود: جدتي خذينا للحديقة خلف المنزل، فقد مللنا الجلوس هنا.

فكرتُ وابتسمتُ قائلة: حسنًا إذًا، تعالَوْا معي، السائق في الخارج ينتظرني.

وصلنا للحديقة، وأخذ الأطفالُ يجرون بكل حرية، ويتساقطون على العشب، ويتسلقون الشجر، يتمرجحون، ويغنون بكل سعادة، أجبروني على اللعب معهم رغم ثقلي إلاّ أنني شعرتُ بسعادة برفقتهم، أخذتنا الساعات والكلمات والأسئلة والمرح، قارب مغيبُ الشمس، أخذتُ الأطفال وعدتُّ بهم للمنزل،

انتشرت الضجة حول المنزل من أفرادٍ وعربات، نزلتُ من السيارة، ونزل الأطفال، اقتربنا منهم، كانت زوجة سعود تبكي، واحتضنت بناتها بحرقة، وأخذ بدر يمسكُ أولاده ويطمئن عليهم، صدمتُ من الحال..

رمقني سعود بنظرة حقد وصرخ قائلاً: كيف تقتحمين المنزل، وتسرقين الأبناء من دون أذني، ماذا إن حدث لهم شيءٌ، مجنونة أنتِ؟

اتسعت عيناي صدمة وغضبًا، تمالكتُ نفسي..

تقدم منّا الشرطيّ الذي كان واقفًا منذ وصولنا: هل تعرفها أخ سعود؟

ردَّ بتجاهل النظر إليّ: إنها عجوز مُسِنَّة لا عقل لها، ولها سوابق كثيرة.

كاد قلبي أن يقف صدمة حينها، دمعت عينايَ، ورجف صوتي.

تقدم الشرطيّ مني وقال: تفضلي معنا لمركز الشرطة.

أجلسُ في مكتبِ الشرطة، بعينين دامعتين، وابتسامة اشتياق لأولادي، الذين اجتمعوا كلهم حولي، جميعهم أمامي الآن، لا يهمُّ أجاؤوا مجبرين أم لا، الأهم أنهم جميعهم حولي الآن..

بكري سعود، الذي كان يتشاجرُ مع إخوته ليكون أول من يضعُ قبلة على خدي بعد عودته من المدرسة، أصبح مستشارًا قانونيًّا، والجميعُ هنا يعرفونه بعدله وحكمته.

وبدر، ثاني خلفتي، الذي منذ وصوله وهاتفه لم يصمت عن الصياح، متصلٌ يليه آخر، سمعته يتحدث معهم عن العقارات والبنيان، أصبح رجل أعمال يترأس أهم مشاريع الدولة، كنتُ أقرأ عنه دومًا في الجرائد، واسمه بارزٌ بالخط العريض في الصفحة الأولى، وصوره التي تملأُ الصفحات، نصفه أنا والآخر أبوه.. بدر الذي كان يكره الحساب والأرقام وهَدّ قدرتي كي أوصل له معلومة حسابية واحدة، ها أنا الآن أشهدُ أنه قد نجحَ في اختبارات الحساب كلها، وأن معلوماتي قد ترسخت بعقله.

وثالثُ الأولاد، جابر نسخة سالم، الشاعر الشاب الوسيم المشهور، الذي ما إن تحركت من شعره خصلة حتى أَصبح حديث كل القنوات الإخبارية، ابني الحنون، الذي منذ جلوسه لم تفارق عيناه عيني، يجلسُ وكلي يشعرُ باشتياقه وحنانه، يراقبني بكل ما فيه، ما له لا يشرعُ يداه ويحضنُ ضعفي.

وصوتُ الكعبِ الذي يقترب، تدخل تلك الفتاة، الجميلةُ إلى حد الهيام، ترتدي الألوان، والزينةُ تملأُ ملامحها، بنظارة فسفورية لافتة، إنها ابنتي سارة، حبيبةُ الفؤاد، التي كبرت بعيدًا عن عيني، ابنتي التي انقطعت عني وأصبحت نسخة مني بالشكلِ والجمال، ابنتي التي دللتها أشد الدلال، وآخر خلفتي.

يتشاجرون جميعهم من حولي وعني، أراهم بهذا الحال وأتذكرهم صغارًا يتعاركون ويأتِي أبوهم كي يحل الخلاف على

قطعة ككاو، أو ريموت التلفزيون، أو لعبة، ها هو عراكهم قد بدأ، ولكنّ أباهم ليس هنا ليوقفهم، والسبب لم يعد تافهًا كما كان، بل السبب مصيري أنا، لم يرحب بي أحدهم، لم يتقدم مني شخصٌ منهم ويحتضنني، لم يسمعوني كلمات الاشتياق، ولم يشبعوني حنانًا، عِوضًا عن ذلك الفراق!

دخل الضابط للغرفة، تقدَّم ورَحَّب وجلس في كرسيه، طلب هويتي وهويات الأبناء، أدخلتُ يدي في حقيبتي، وعثرتُ على الظرف الذي جئتُ لهم من أجله، تجاهلتُه، وأخرجتُ الهوية وسلمتها للضابط..

الضابط للأبناء: هل تعرفتهم عليها؟ أم أنكم تجهلونها؟

تقدم سعود، ابتسمتُ لوهلة وأنا أنتظره أن يقول كلمة أمي، وأن الدعوة ملغاة: هذه العجوز يا حضرة الضابط والدتنا، ولكنها ليست بكامل وعيها، ومصابة ببوادر الخرف، تسكنُ بعيدًا عنّا، وأتت اليوم، وأخذت الأولاد دون علم أحد منّا، لولا اتصال الخادمة بي، الله أعلم أين سيكونون الآن!

وصعقتُ بكاملي، أردتُّ الوقوف لمواجهته، فخانتني القدرة، لا أصدق ما أسمعه!

ردَّ الضابط: حضرة المستشار هل لديك اثباتٌ صحيّ لحالة الوالدة؟

أكمل وقال: لا والله ليس معي ما يثبت الحالة، ولا أعلمُ عند

أي طبيب تأخذُ علاجها، أنا مستعد أن أتنازل عن الشكوى المرفوعة، ولكني سآخذها لدار المسنين فورًا، فحريتها تُشكِّلُ عبئًا على الجميع يا حضرة الضابط.

وجَّه لي الضابط أسئلته.. التزمتُ الصمت وعيناي تدمعان قهرًا على ما سمعتُ منهم.. أولادي يريدون رميي في دار العجزة، لم يكفهم الجفاء، يريدون حرق فؤادي دون رحمة، وقفتُ دامعة، خرجتُ وكل ما حولي كئيبُ المنظر.. سمعتُ سعود وهو يأمر إخوته بأن يرافقوني للخارج، وهو سيكمل إجراءات التنازل وحده.

أجلسوني على كرسيٍّ قرب باب المركز، حضر سعود ورمى بطاقة هويتي بوجهي، وقف أمامي وقال بغضب: هل أعجبكِ تصرفكِ هذا؟ سنون طوال ونحن بعيدون عنكِ، دون همٍّ وغمٍّ، أنتِ من صنع هذه الضجة، واحتملي ما يأتيكِ الآن.

رد عليه بدر: اسمعني يا سعود، أنا لديَّ رحلة للخارج يوم غد، ولا وقت لديّ لأشغل نفسي بعقلها الفارغ هذا، سأرحل الآن، تصرف أنت وأنا معك بالذي ستقوله.

خرج بدر فورًا دون أيّ ردٍّ على حالي، لم يكلفْ العناء لناظريْه حتى بوداعي، أكمل سعود: اسمعيني سارة، أنا مشغولٌ أيضًا، خذيها معكِ لمنزلكِ اليوم، وغدًا سأرافقُكِ لدار المسنين لنضعها هناك، ونرتاح منها!

ارتدت سارة نظارتها، ردّت بفيها المنفوخين: ومن قال إني سأعود لمنزلي؟ اسمعني لقد جئتُ هنا فقط كي أشهد وإيّاكم على حالها، ولكنني لن أعاود الكرة، أنت بكرها وأولانا بها، خذها لزوجتك لترعاها، وغدًا ارمِها هناك، سأخرج مع رفقتي للبحر لثلاثة أيام، لن أكون متفرغة.

أشارت بأصابعها للوداع، ورحلت دون أن تهتم لغضب كلمات سعود عليها، لم يبقَ له سوى جابر، الذي لم يتفوّه بكلمة واحدة منذ وصوله.

سعود بهدوء: جابر ليس هناك سواك كي يهتم بها الليلة، خذها معك.

وقف جابر بصمت وعينين حمراوين، وقف بوجهه وقال: أنتَ تعلمُ أنني غير راضٍ على فعلتك، ولن أستطيع إسكانها في شقتي وأصدقائي ينامون برفقتي، قالتها سارة قبل أن تهمّ بالذهاب، أنتَ بكرها وأولانا بها، إن لم تستطع إسكانها، فعليك بما يعول عليه ضميرك، ودار المسنين ليس بمدرسة كي يفتح في الصباح فقط، يستقبلُ الجميع طيلة الأوقات والأيام، خذها أنت، فأنا لن أستطيع أخذها لهناك.

رفعتُ رأسي له، كان آخر أملي، ولكنه لحقَ بإخوته، نظر لي وعيناه كتمتا البكاء، ورحل بعجلة للخارج، نفخ سعود صدره، وصرخ بي بأن أتبعه للسيارة، لحقتُ به، أخذني لمنزلي وأوقف

السيارة، ابتسمتُ.. فربما ضميره ما زال يحوي بعض الحياء على حالتي، نظر لي نظرة حادة وقال: لديكِ ربع ساعة، اجمعي فيها كل حاجاتكِ في حقيبة، واجلبيها بسرعة.

نزلتُ من العربة وقدماي ترتعدان، رجفة خيانة سكنتني، اصبحتُ الأم غير المرادة، مثل القصص التي كنّا نسمعها طيلة حياتنا، كُتِبَ علي بأن أكون بطلة إحدى القصص، وربما أكون عبرة لأولاد الناس، الأم التي رماها أولادها في دار العجزة.. عنوان سيتصدرُ كل مواقع التواصل والتلفاز والجرائد، وستكثُرَ الآراء حول حالي، منهم من سيقفُ معي ويتحسبُ على الأولاد، ومنهم من سيؤيّدُ الفعل ويقول إن المكان مناسبٌ لمثلي، وصنف سيشكّكُ ببراءتي، ويقولون: ربما هي السبب، فلا أولاد يرمون إلاّ بعد عناء وشقاء، وسأصبحُ أضحوكة العالم، ومُصابة القلبِ والروح.

وصلنا دار العجزة، أنزل حقيبتي بعجلة من صندوق العربة.. أمسك بيدي وأخذ يجرّني للداخل، بكيتُ منذُ أول خطوة خطوتها في هذا المكان، لوحة عملاقة كُتِبَ عليها: دار المسنين.

تحدث مع الاستقبال، وطال الكلام والوقت، أجلس وحقيبتي قربي، ورحل مستعجلاً للخارج، علمتُ حينها أنني لن أخرُجَ من هذه الجدران، ولن يعود لي الأولاد، انهارت قواي، وبكيتُ بشدة وحرقة، غصةٌ تسكنني، لم أعدْ ملك نفسي بعد الآن، ولم أكن

ملكي منذ ولادتي من الأساس.

مر عامان منذُ آخر مرة رأيتُ فيها أولادي، عامان قضيتهما في هذا المكان، المكان الذي خالف توقعاتي، وأصبح أمانًا يحوي كِبري، تعبتُ كثيرًا إلى أن بدأت التأقلم على هذا الحال.. غرفٌ كثيرة، شخوصٌ كُثر.. قصص وحكايات يحترقُ لسماعها الفؤاد، كل سكّان هذا المكان يرون الخارج ألمًا ونفاقًا، كل الأشخاص أصبحوا وحوشًا، كل أمٍ تخبرني غصتها التي لا تُبلع، كلّ قلبٍ نزف ونزف وهلك وتعصّر، كل اشتياق خُذِل من الجفاء، وكل «أمي» تناستها أفواه الأبناء..

وأولادي.. الذين أخجلُ من ذِكرَ أسمائهم بعد فعلتهم، أولادي الذين لم يكتفوا برميي، بل استعجلوا ورثي، وخانتهم قدرتهم على قتلي، فرفعوا عليّ دعوى حجرٍ في المحكمة، واستغلوا مسكني الجديد وحالتي النفسية المتعبة، تم أخذي عدة مراتٍ للمحكمة، واستنزفوا كل ما أملكه من طاقة وأمومة، ما عدتُ قادرة على المقاومة، فلهم كل ما أملكُ عداني أنا، لا أنسى اليوم الذي تم تحويلي به للطب النفسي كي يكشفوا على حالتي، يومٌ أذكره أكثر من اسمي، كانت الغرفةُ بيضاء شرحة، طاولة بنية رُتّبت فوقها الأوراق المكدسة.. حاسوبٌ رماديّ اللون نُحِتت عليه تفاحةٌ مقرومة، لوحةٌ معلقة متوسطة الحجم يقف فيها

طبيب مكتِّفاً يديه وهو بكامل ابتسامته، ونفسُ الطبيب في برواز آخر على الطاولة البنية أمامي، يقف وزوجته وهو يحمل بحضنه ابنته، وزوجته تحتضن رأس ولدهما، تتصادمُ رجلي مع الأرض ربكةً وقلقاً، أقرّبُ أصبعي من كوب القهوة كي أُصعق من الحرارة فأصحو، الكوب باردٌ وكأنه لا يريدني أن أستيقظ من هذا الحلم اللعين.. أراقبُ الساعة المعلقة، وأسرح مع عقاربها للماضي كله، يُطرقُ الباب، يدخل الطبيبُ ذاته الذي كان بطلاً للصور.. كان في منتصف العمر.. بشوش الملامح.. أقرع الرأس.. مفتول العضلات، بلحية خفيفة الظهور، ألقى التحية واعتذر عن التأخير.. ابتسم وجلس ورحب قائلاً:

- لم تشربي قهوتكِ بعد، هل جلبها لكِ العامل باردة؟

- أنا من تركتها تبرد، فإن شربتها ستعود الأفكار، الأفضل أن أنام عنها.

أمسكَ مِلفي وقرأ الغلاف وقال: يا أمي، اسمُكِ مهرة محمد.

قاطعته: الأم عميقة، والكلمة إذا لم ترو بها أمك سمعًا وحسًّا لا تُلقي بها على أية مسنة أخرى.

ابتسم: أعتذرُ يا مهرة، ولكن.. هل لي بمعرفة السبب؟

رددتُّ بألم: لأنني سمعتُ الكلمة لأعوام وهي جافّةُ النبرة من أبنائي، ومنذُ ذلك الحين أدركتُ أنهم نكروا أمومتي، واليوم حينما سمعتها منك وجدتها ما زالت طرية النغم، إيّاك تركها

تجف، وإن جفت اقطع لسانك، ولا تلقِ بها على مسامع والدتِكَ كي لا تقتل أمومتها.

- حاضر يا مهرة، سأبلِغُكِ بحقيقة وجودكِ هنا، بعد السماع لشهادة أبنائكِ الكرام، واختبارات الذاكرة، ورجاحة العقل التي قمنا باختباركِ بها منذُ أن قدموا بكِ هنا، لقد تمت تبرئتُكِ من هذا المكان، وأنتِ بكامل قواكِ العقلية يا مهرة، وتستطيعين كسب القضية بالأوراق هذه التي ستكشفُ براءتُكِ.

عضضتُّ شفتيَّ وانهار كُلّي باكيًا.

قال مصدومًا: دموعكِ يا مهرة ليست دموع فرح!

- كنتُ أصفقُ لهم حينما يفشلون، وأفرحُ لهم حينما ينجحون، بتروا روح أصابعي فلا أقدرُ على التصفيق، وبكيتُ غير قادرة الفرحة.. لقد أبلغتني عن خسارة أبنائي لتوّك، وعن فوزي أنا، لا عدالة في منافسة بين أم وأبنائها، لقد سعيتُ في تربيتهم لأجعل منهم سندًا لهلاكي في الكِبَرِ، ولكنهم كبروا بسرعة، وكسروني قبل أن أُكسر، سعيتُ دائمًا لأكون قوية في أنظارهم، علّمتهم قوة الشخصية، فواجهوني حقدًا حينما كبروا، ربيتهم على قوة الحقيقة، فاخترقوا قلبي حينما تبرَّؤوا من أمومتي، دربتهم على قوة الجسد، فحملوني ورموني هنا لوحدي، لقد سرقوني.. سرقوا عمري وصحتي وهيئتي، لماذا لم يسرقوا طيبة قلبي؟

مسح وجهه ورد بحنان: لا تنسيْ أن الله حولكِ أينما كنتِ يا

مهرة.

- ونعم بالله.

- هل تريدين التواصل مع أحد الأقرباء ليأخذكِ.

- أريدُ منك صفقة يا ولدي، أرجوك أبطل صحة هذه الأوراق، وصحح رؤية أولادي، لا أريد منهم شيئًا بعد الآن، كل ما أملِكُ لهم، وسأكملُ حياتي في دار العجزة بعيدًا عن كل شيء، أعلمُ أن تزوير الأوراق هذه قد يعرِّضُك للخطر، ولكنني أعدُكَ بأن لا أحد سيُشكّك بتقريرك الطبي، أنا متنازلةٌ عن حقي وأملاكي لهم، أرجوك يا ولدي حقق مطلبي، واجعلهم يكسبون القضية، وأنني صفقتُ لفوزهم بحرارة، فلا أريدُ كسرهم بالخسارة.

وقفتُ ومسحتُ دموعي، ومشيتُ للباب، أدرتُ ظهري، وقلت: لا تُعلم أولادك على القوة، فقد يكسرونك يومًا، علمهم على اللّين، فاللينُ وإن تمدّد لا يُكسر.

وقف وقال بصوتٍ عالٍ: أمي مهرة.

أدرتُ جسدي له من جديد: قلتها بطراوة أعمق هذه المرة.

أردف وقال: ماذا إن ما زالت هذه الكلمة طرية النغم، ووالدتي ليست حولي، بل تحت التراب.

صدمتُ من كلامه، ابتسم وتقدم نحوي وقبّل رأسي ويديّ: ليت أمي هُنا، كنتُ سأعود في حضنها كالطفل دون حركة، مات من ماتت أمه، ولُعِنَ من رمى أمه وهي على قيد الأمومة تُحارب، لكِ

مطلبكِ يا أمي، واعتبريه قد تم، حتى وإن عرضني للخطر.
ابتسمتُ له بدمعي، مسحتُ بيدي على كتفه، وأغلقتُ الباب، ورحلت برفقة مساعديّ في دار العجزة.
ولكني رحلتُ للأبد.
على لسانِ شخص غير مهرة..
استيقظتُ بنعاسٍ شديد، أمسكتُ الهاتف لأجد أن المنبّهَ قد آلمه حلقُهُ من الصراخ دون جدوى، أغلقته ووجدتُ قدرًا هائلاً من المكالمات الفائتة، علمتُ أنني قد تأخرت كثيرًا على الميعاد، اتفقتُ مع الأصدقاء.. أخذتُ حمامًا ساخنًا سريعًا، ارتديتُ ملابسي، وهُرِعْتُ جريًا بسيارتي، خلال رحلة المسير اتصلتُ على المسؤول واعتذرتُ عن التأخير، وأعلمته بأنني سأتواجد في المكان بعد دقائق قليلة.
وصلتُ لمكان التطوع.. استقبلني الأصدقاء، وشرحوا لي كلّ ما فاتني من تعليمات، سجلتُ الحضور، وكتبتُ رقمي التطوعي، أخذتُ الكاميرا، واتجهتُ لأداء عملي، بتُّ أستلمُ الكاميرا دائمًا في أية جولة تطوعية لبراعتي في استخدامها، ودائمًا ما تصلني كلماتٌ تصنعُ سعادتي حول روعة الصور وزواياها، كان المكان التطوعيّ هادئًا هذه المرة.. ذهبتُ للحديقة الخلفيّة، حيثُ يجتمعُ الجميع.. أخذت الفتيات يسرحن شعور العجائزويحنّين أيديهنّ، والشبابُ يقسّمون الطعام، ويوزعونه لأصحابِ هذا

المكان، كان شعورًا لا يُفسَّر.. أن نكون سببًا في سعادة من هنَّ بمقام جدَّاتنا.. بسماتهن المجعدة.. فرحةُ قلوبهن.. شوقهن للزوّاروالعالم الخارجيّ الذي لا يرونه إلاّ نادرًا، تحرّكتُ وأخذت التقطُ الصور السعيدة تلك، من عدة زوايا مختلفة، وجدتُّ من يجلسُ ويسمع قصص إحداهنّ، ومن تُراقصُ ثقل الأخرى، ومنهم من تزاحموا حول عجوز تغني وتنشد القديم، وفتاة تُضفِّرُ شعيرات أخرى..

احتجتُ الذهاب للحمام، دخلتُ المبنى وأنا أجهل مكانه، مشيتُ بين الممرات، عثرتُ على حمّام الزوّار.. دخلت بعجلة، وقضيتُ حاجتي وخرجت، كان الممر طويلاً مظلمًا بإضاءات بسيطة، وكأنه مشهدٌ من أحد الأفلام، وجهتُ الكاميرا وأخذت عدة لقطات، زاد بي الفضول لاكتشاف المكان، مشيتُ كثيرًا، ردهة الطعام، وعيادة صغيرة، ومكتبةٌ هادئة، اقتربتُ من غرف الساكِنات، أخذتُ أمشي بمهل لرؤيةِ غرفهن، سمعتُ صوت قطة، فزعتُ خوفًا.. تمالكتُ نفسي، ودخلتُ لخوفي من أن تكون إحدى القطط عالقة بشيء، كان باب هذه الغرفة غير مشرع، بعكس باقي الأبواب، أمسكتُ قبضة الباب، وفتحته بمهل شديد.. دخلتُ الغرفة بخطواتٍ صغيرة بطيئة، كانت غرفة وسطية، بها سرير واحد، ودولاب، وستار النافذة مشرع، وكرسي هزاز، تجلسُ عليه عجوزٌ لا أرى منها سوى ظهرها

وشعرها، وقطعة تنسدلُ من حضنها، وكأنها ما زالت تحيكُ فيها، قطةٌ رمادية نائمة فوق الطاولة، هذه هي القطة التي أصدرت الصوت، وكرسيٌّ هزاز آخرٌ صغيرُ الحجم قربها، وتجلسُ عليه دميةً غريبة الشكل تنسدلُ منها الخيوط، عجزتُ عن الحراك للأمام والعودة، بقيتُ مكاني.. أصابتني الربكة قليلاً، تنحنحتُ بصوت مرتفع؛ كي تشعر بوجودي..

قالت دون حراك: الحديقة في الخلف، أول باب على اليمين سيأخُذك لها.

قلتُ باستغراب: ولم لم تأتِ معهن؟

ردت بسرعة: ما زلتُ أخافُ البشر، لم يشفِنِي المكانُ بعد.

قلتُ في داخلي: إنها من الأكيد مصابةٌ بالخرف.. اقتربتُ منها، وجلستُ أمامها، ابتسمتُ لها، نظرت لعيني وردّتْ الابتسامة مجاملة، وعادت لتحيك قطعتها من جديد.. كسرتُ حاجز الصمت، نظرتُ لدميتها وقلت: صديقتُكِ جميلةٌ مثلُكِ يا جدة.

ردت بثقة: لستُ مريضة صدقني، ولا مصابةٌ بالخرف، وأعلم أنها دمية متهالكة وليست ببشر، وأنها لا تسمعني، ولا تحدثني، ولا تشعر بي.. هل أقنعتُك؟

رددتُّ بذهول: كثيرًا، أعتذر عن التطفل، سأذهب.

أوقفت وقوفي: يبدو أنك مللت الوضع في الحديقة.

ابتسمتُ لها: أنهيتُ مهمتي، لا جديد هناك لي.

قالت بفضول: وما هي مهمتك يا ولد؟
رفعتُ الكاميرا لها وابتسمت..
ردّت بتعجب: أعانك الله على وجوهنا المتهالكة.
رفعتُ حاجبيّ: لا عليكِ، ليس هناك أجمل من أن ألتقط صوركنّ، فأنتن أجمل من صورتُ بها.
تركت خشبات الحياكة، وقالت: ستقنعني بأننا أجمل من مدير، أو مشهور، أو وزير.
ضحكتُ: المديرُ يأمرنا بأن نصور تبرعه؛ كي يرسم لنفسه قالبًا من العطاء والكرم، والمشهورُ يُشعِرنا بأننا قد نموت إن لم نلتقط له صورة، والوزير يبتسمُ للصورة وما إن ننتهي من التقاطها يهمُّ خارجًا بنفسيَّته المزعجة وصراخه، أنتنّ صادقاتٌ وأجملُ بكثير.
ضحكت كثيرًا: إذًا لن نصدق أيًّا من صوركم بعد الآن.
أكملتُ لها: صدقي العيون، فهي لا تكذِبُ أبدًا.
- وهل تمتهِنُ التصوير في حياتك؟
ابتسمتُ لها: لا فقط حينما أتطوع أرافقُ هذه الكاميرا، أما أنا فأدرِسُ في الجامعة يا جدة.
قالت بحنان: بارك الله فيك يا ولدي.
تحرَّكَ القطُّ من خلفي، واعتدل في نومه..
قلتُ بصوتٍ خافت: يبدو أنه أمِنَ روحه قرب حنانكِ.

أرجعت ظهرها للخلف: ليتني أسعِفُ كل عاتٍ بحناني.

صمتٌ جديد..

كسرتُ الصمت مجدّدًا: لمن هذه الدميةُ إذًا؟ يبدو أنكِ جلبتها لحفيدتكِ.

قالت بابتسامة حزينة: أحفادي الآن يتعلمون من والديهم درس بر الوالدين، وهم أول من عقّوا بي!

صمتٌ صادمٌ آخر..

أكملت: ليتهم رسبوا في هذا الدرس؛ كي أعيد شرحه بكل معانيه لهم، وهذه دميتي يا..

ضحكت كثيرًا وسط استغرابي، وقالت: فتحتُ لك قلبي قبل أن أعرف اسمك.

ضحكتُ لها: حمدان.. اسمي حمدان، تبدو قديمة هذه الدمية.

ابتسمت وهي تتحسّس الدمية: إنها هدية من والدتي، حينما كنتُ في التاسعة من عمري.

أمسكت خيطًا من خيوطها، وقالت: هل أجد معك سكينًا أو مقصًّا؟

قلتُ بقلق: لماذا؟

ضحكت: لا تقلق، أنا أعقلُ من أن أنتحر، ولكنني أريد قطع خيطٍ يزعجني.

ابتسمتُ، توجّهتُ قرب عربة طعامٍ جُلِبت لها، وأخذتُ منها

سكينًا، وقدمته لها.

ابتسمت لي: نعم، يفي بالغرض.

أخذتها ووجهتها لخيوط الدمية الكثيرة، وأصبحت تقطعُ خيطًا يليه الآخر إلى أن نفدت كلّ الخيوط التي تصلُ بالدمية.

استغربتُ كثيرًا: لماذا تقطعين الخيوط؟ خيوطها جميلة.

ابتسمت: كنتُ أردّد بعد كلِّ كارثة تحيط بي: لربما خيرةٌ يا مهرة، كنتُ أحترقُ لأعرِف الحكمة من هذه الخيرة، وكنت أجهلُ الوصول للمعنى دائمًا، واكتشفته اليوم، اكتشفتُ بعد كل تلك الأعوام، إنني كنتُ سبب كل ما مررتُ به، لا تلُم الآخرين يا ولدي، وأنت تُبقي خيوطك موصولة لهم، حينما تحسستُ الدمية شعرتُ كأنني أتحسَّسها لأول مرة، اقطع ما يؤلمك، لتعيش حرًّا طليقًا.

رددتُّ بعد سرحانٍ بكلماتها: يبدو أنكِ مررتِ بالكثير يا جدَّة.

ابتسمت وهي تحملُ دميتها بحضنها: واجهت هذه الدمية، وإيَّاي الكثير من الصعاب.

قلتُ بعجلة: سأكتبُ قصتها.

ابتسمت بهدوء: لطالما تمنيتُ أن أكون سطرًا في قصيدة، أو أغنية، أو كتاب، رحل من كان يُشاركني الأمنية، ورحل الآخر الذي كان يودُّ صنع الكتاب.

واسترسلت بالحديث والقول.. وبعد مرور أربعين دقيقة..

قالت بنبرة حزينة: ها قد أصبحتُ لك قصة، قُلها لصغارك..
لا تَنْسَ.

□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□.indd 138 24/09/2022 03:25:41 □